غُرْبَال وتَكْوين مصـر

(مدخل إلى فلسفة التاريخ)

بقلم: أ.فايز علي

باحث في العلوم الاجتماعية

obeikan.com

obeikan.com

يظل لتاريخ كل أمة خصوصية وتفرد، وإذا أمكن إدراجه في إطار رؤية فلسفية فإن مصر أولى بتلك الرؤية نظرًا لما يتميز به تاريخها من امتداد شاسع وتعقد في عوامله وعناصره.وحينما يقال مصر يتبادر إلى الأذهان الأهرام والمعابد القديمة الفرعونية، أو منار الإسكندرية فضلًا عن الكنائس والجوامع، وهلم جرًّا.

وحينما وضع مؤرخنا الكبير غربال كلمة "تكوين" قبل "مصر"؛ فقد وعى كل تلك الهيئات المختلفة، وشمل كل عصور تاريخ مصر بل ما قبل ذلك التاريخ الحافل، فارتفع فوق كل ما قد يبدو من تعارض بين المفكرين، أو تنافس بين التيارات والأحزاب السياسية [١].

مؤرخ مصر الحديثة:

هكذا أعد محمد شفيق غربال أو أعدّ نفسه ليكون مؤرخًا لمصر الحديثة، تلك التي صارت مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨٨٢م أي قبيل ميلاد مؤرخنا (في سنة ١٨٩٤)، وهو ابن مدينة الإسكندرية ، التي سُميت المدينة المتاخمة لمصر كما سيشير هو نفسه في "تكوين مصر"[٢]. إنها مدينة عالمية (كوزموبوليتانية) بل كانت حاضرة مصر كلها والعالم القديم منذ نشأتها المعروفة[٣]، وظلت هكذا، فلم ينل من مكانتها ظهور عواصم تالية لمصر كانت القاهرة آخرها.

---

(١) عقب حادث دنشواي سنة ١٩٠٦م تأسس الحزب الوطني سنة ١٩٠٧ وأحزاب أخرى. وفي سنة ١٩٠٨ تأسست الجامعة المصرية، مما زاد من حراك المجتمع آنذاك. وجاءت جنازة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م لتزيد المشاعر تأججًا: فايز علي: حادث دنشواي والشعر، الجمعية التاريخية ٢٠٠٦.

(٢) كانت هذه مقدمة لدراسة عن "فلسفة التاريخ" ولكنها لم تظهر. راجع: حسام عبد الظاهر: أضواء جديدة على كتابات غربال – في تحقيقه ل: "تراث محمد شفيق غربال. البحوث والمقالات، دار الكتب، القاهرة ٢٠١٢، جـ١ ص٢٦ .

(٣) أسسها الإسكندر الأكبر في شتاء سنة ٣٣٢-٣٣١ ق.م ، وذلك في طريقه إلى سيوة، في مكان راقودة بلدة مصرية متاخمة لبحيرة مريوط، وأقام جسرًا يربطها بجزيرة فاروس ذكرت في أوديسا، فنشأ عنه ميناءان.. مجموعة مؤلفين: الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها: العصر اليوناني الروماني، هيئة الكتاب، ١٩٧٨، مجلد ١: جـ٢: ص ٤٨٨. راجع أيضًا:

J.B.Bury, A History of Greece, Mod. Libr., New York, 1927, p. 758..

آفاق فكريـــة:

نعـم غربـال بجوّ أسري هانئ يدفع إلى طلب العلـم والمعرفة، بينما كانت مصر – وهو لم يزل في صبـاه – تموج بتيارات فكرية وسياسـية واجتماعية متنوعة وفق تنـوّع المرجعيات. وظهرت الجامعـة المصريـة سـنة ١٩٠٨ نتيجة لتضافر شـتى الجهـود الوطنية المخلصة على تعدد مشـاربها وانتماءاتها الفكرية [١].

ودون إسـهاب نـرى أن مؤرخنا – وهـو لم يزل بعد في طور الإعـداد والتكوين – عاصر كوكبـة مـن المفكرين والأدبـاء كانوا بمثابة المرشـدين الروحيين له. منهم مثـلًا العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، وقبلهم أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، ومدرسته «المصرية» [٢].

وطبيعي أن يتأثر المؤرخ الناشـئ آنذاك بالتيـارات الفكرية المتباينة التي مثّلها أولئك الرواد منذ مطلع القرن العشرين.

ولعـل "تكويـن مصر" كان أفضل عنوان يعـبّر عن مصر آنـذاك – أي في الفترة التي بدأت آنـذاك بتعبير أدق. تلك هي الدلالة المسـتقبلية الممكنة لذلك العنـوان، وإن كان – كما تقدم – يحمل معنى شاملًا شمولية تاريخ مصر.

النزعة المصرية والتحديث:

انقلابـات التاريـخ حادّة، فمـصر – على عظمة تاريخها في مراحل كثـيرة – تصبح

---

(١) راجع: عبد المنعم الجميعي: شفيق غربال – سيرة وتحية، أيضًا:

P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt, Weidenfeld Pbl., London 1969, p. 176f, 204 f.

(٢) ليسـت المصريـة تخصصًـا علميًا ولا انتماء سياسـيًا بقدر ما هي أسـاس أصيل للشـخصية، و قد نادي بها مفكرون مثل لطفي السـيد.. راجع عنه: أحمد لطفي السـيد: قصة حياتي، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٠؛ شوقي ضيـف: الأدب العـربي المعاصر في مـصر: ط٧: دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥١ ومـا يليها (مقالاته في "الجريـدة")أيضًـا:

Vatikiotis, op. cit., p. 265 ff.

مستعمرة بريطانية حديثًا![١] والجامعة الوليدة ترسل ابنها إلى إنجلترا لدراسة تاريخ مصر الحديثة واستجلاء أبعاده، فيعود غربال ليرود تمصير التاريخ.

والتمصير لا يعني مجرد إحلال أساتذة مصريين محل الأوروبيين الذين كانوا يدرسون تاريخ مصر[٢].

ولذا نجد «غربالًا» يرود أفق الحضارة المصرية التي شهدت عظمة وتفرّدًا - في مراحل حكم الفراعنة - لا يكاد يُدرك لهما شأو. وما له لا يفعل ذلك، والعالم كله مهتم بتلك الحضارة؟ والبحوث والتنقيبات عن الآثار القديمة تزداد وتيرتها منذ حملة بونابرت فصاعدًا![٣].

غربال والواقعية الجديدة:

مثل كل من وايتهد (١٨٦٤-١٩٤٧) وبرتراند راسل (ت ١٩٧٠م) المدرسة الواقعية (الإنجليزية)[٤].

وأما أرنولد توينبي - الذي تتلمذ غربال على يديه - فقد كان هبة التاريخ، إذ أنزل مصر منزلتها اللائقة في صنع الحضارة الإنسانية وتطويرها على امتداد التاريخ، مقدمًا رؤية فلسفية

(١) ثمة نظرية جادّة أن أول ملوك بريطانيا القديمة كان مصريًا أسس مستعمرة مصرية هناك، ودفن في هرم Silbury كفرعون..

J. Ivimy, The Sphinx and The Megaliths, Abacus Pbl., UK 1974, p. 147 f.

(٢) راجع تفصيلًا: لماذا شفيق غربال من شوامخ المؤرخين؟ لأستاذنا المؤرخ العلامة رأفت غنيمي الشيخ وقد تفضّل سيادته بإدارة الجلسة التي ألقيت فيها هذه المحاضرة في الجمعية التاريخية يوم السبت ٢٠١٢/١٢/٢٩.

(٣) التاريخ علم موضوعي يقوم على إسهامات الجميع مصريين وأجانب، وغربال قدّم موسوعة "تاريخ الحضارة المصرية" لسليم حسن ونجيب ميخائيل وبول غليونجي وآخرين، وفي "الأدب المصري" القديم كتب سليم حسن أيضًا، وأما محمد كامل حسين فله: في الأدب المصري الإسلامي: ١٩٣٥.

(٤) فيلسوفان رياضيان وواقعيان، اتجاههما تحرري إنساني. يعليان من شأن المبادرة الفردية، والمغامرة والإيمان والبطولة في نشأة الحضارة، أ.هـ جونسون: فلسفة وايتهد في الحضارة، ت.ع. ياغي، المكتبة العصرية، صيدا: ١٩٦٥.أيضًا:

Kunzmann- Weiss, dtv-Atlas Philosophie, 1. Afl., dtv, Muenchen 1991, S.S. 221, 227.

للحضارة البشرية [١].

وتعتبر دراسة غربال للتاريخ تطبيقًا لما وعاه مؤرخنا من رؤى نظرية لتفسير حركة التاريخ، وبالأحرى ظهور الحضارات وتطورها، وعلى رأسها نظرية التحدي والاستجابة" لـ: توينبي. إذ تقوم صفوة مبدعة مستنيرة بالاستجابة لتحديات الطبيعة على نحو بنّاء، قائدة خطى المجتمع نحو التقدّم. ومع فساد تلك الصفوة يحدث التدهور. فمدار الأمر إذن حول مبادرة رجال عظماء، وذلك تعبير نصادفه في "تكوين مصر" أيضًا [٢].

وبقدر أهمية تلك الدراسة بقي الاهتمام بها كبيرًا، لتعاد طباعتها مرارًا. هي لبنة مهمة في صرح كبير، فما لها ظلت باقية ولم يتطاول ذلك الصرح مثلما تطاولت صروح الكرنك وهابو؟ لا بأس "فأعظم ما ترجوه ما لا تناله – وأكثر من لاقيت من لا يوافق".

عرض لبعض قضايا الدراسة :

التاريخ يعني نقد الوقائع وتمحيصها.وإذا قارنا التاريخ بالبناء بدا لنا تاريخ مصر أشبه بناطحة سحاب بين مجموعة من العمارات والفيلات. فإذا نظرنا إلى ساكن الطابق العلوي الأحدث بناء في كل تلك البنايات؛ تبين لنا أن مسئوليته تزداد بقدر ارتفاع البناء الذي يقيم فيه، وذلك بالنظر إلى حقوق الارتفاق التي تضبط علاقته القانونية بساكني الأدوار الأخرى التي تسبقه. أما الأساس الذي يقوم عليه تاريخ

---

(١) أولى توينبي حضارة مصر وديانتها القديمة وفكرها أهمية كبيرة في: "مختصر دراسة التاريخ": A Study of History، لخصها سمرفيلد، وترجمها إلى العربية محمد فؤاد شبل.

راجع أيضًا: رأفت الشيخ: لماذا غربال؟ م.س.

راجع عن توينبي:

.Dtv. Lexikon, Brockhaus, Mannheim 1999, B. 18, S. 256

(٢) يرى ابن خلدون (ت ١٤٠٦) أن الدولة تمرّ بأطوار ثلاثة تبدأ بالقوة (العصبية) وتمرّ بالرفاهية، وتنتهي بالضعف تحلّل العصبية ونشوء دولة أخرى (كالأشخاص).لقد وضع أُسُسًا نقدية لدراسة الحضارة والتاريخ، سابقًا فيكو بنحو ثلاثة قرون: عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص ١١٦، ١٢٨، ١٥٢ وما يليها.

البشريـة فهـو ما قبل التاريخ [١]. ولمصر إسـهام عظيم في حضارات تلك الفترة المبكرة [٢].

وأما تاريخ مصر فيبدأ تقريبًا سنة ٣١٠٠ ق. م، باختراع الكتابة وتأسيس الدولة المركزية، وإن أضيفـت إليه فترة مهمة أطلق عليها تسـمية "ما قبيـل الأسرات"[٣]، وهي ذات أهمية قصوى، إذ أسهمت في ظهور حضارة الأسرة الأولى الزاهرة.

وتمتد الأسرات المصرية منذ حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م إلى سنة ٣٣٢ ق.م التي شهدت غزو الإسكندر مصر، وعدّة تلك الأسرات ثلاثون، تنقسم على ثلاث وحدات رئيسية، وفترات بينية أخرى [٤].

وأما حكم إسـكندر وخلفائه البطالمة فيمتد من سـنة ٣٣٢ إلى سنة ٣١ ق.م – أي نحو ثلاثة قرون، تصبح مصر بعدها مستعمرة رومانية، منذ انتصار أكتيوم في سنة ٣١–٣٠ ق.م حتى الفتح العربي في سنة ٦٤١ م(٢١ هـ) [٥].

---

(١) يمثل آخر مليوني سنة في عمر الأرض (حوالي ٤ مليارات سنة)، ويبدأ بالباليوليتيك (العصر الحجري القديم) وهو يعاصر البليستوسـين، إذ عاش الهومينيد (أشـباه البشر) ... وأما الإنسان العاقل فيقدر أنه ظهر منذ خمسين إلى مائة ألف سنة.. راجع: فايز علي: فلسفة التاريخ، القاهرة، ٢٠٠١، ج ١:ص ١٧ وما يليها، وكذا دراستنا: إنسان ما قبل التاريخ وحضاراته، القاهرة ٢٠٠٥، ٤ أجزاء، المقدمة.

(٢) فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ٨١ وما يليها.

(٣) وتسـمى خطأ بالأسرة صفر، وتسـبق عصر التوحيد (الثاني) على يد مينا أو نعرمر (حوالي ٣١٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م)، إذ أن ثمـة توحيـدًا أول (حوالي ٤٢٤٢ ق.م) سرعان مـا انفصمت عراه. راجع: فايز علي: ما قبل التاريخ: ٣: ٢٠٤ وما يليها، فلسفة التاريخ: ١: ١٥ وما يليها. كذا دراسات:Hoffman, Baumgartel, Hayes, Adams

(٤) تلك القسـمة المعتمدة في علم المصريات الآن، وترجع إلى مانيتون السـمنودي المؤرخ المصري (ت ٢٤٥ ق.م)، الذي فقد كتابه، ولم يصلنا إلا في إشـارات ومقتطفات لدى يوليوس الأفريقي (٢١٧م) ويوسـيفوس ت ٣٤٩م... فايز علي: فلسفة التاريخ: ١: ١٠ وما عليها. وفيه إشارة إلى:

W.g. Waddell, Manetho Classical Libr., London 1940; Emery, Archaic Egypt; s.a. Posener u.a., Lexikon der Aegyptichen Kultur, Loewit Vrlg., Wiesbaden 1960, S. 156.

(٥) في سـنة ٦٤١ سـقط حصـن بابليون (مارجرجـس الآن بمصر القديمة) وكان أكبر حصـون الرومان بمصر – في أيدي العرب، ثم فتحت الإسكندرية سنة ٦٤٢، وكانت العاصمة

C.D.G. Mueller, Grundzuege des Chrislich – Islamischen Aegypten, WBG, Darmstadt 1969, S. 144 ff.

وتنقسم الفترة الممتدة منذ الفتح العربي فصاعدًا إلى عصور إسلامية نسبة إلى الأسرات التي حكمت مصر خلالها. وتدلف مصر إلى العصر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر [١]. تلك في تصورنا قسمة اعتبارية أو صورية محضة إذ لا مفرّ من تصور فلسفي محكم لمسيرة الروح المصري في الزمان حتى نصل إلى تصور مُرْضٍ في هذا الشأن [٢].

والآن نوضح كيف عالج مؤرخنا قضايا دراسته، وهي: مصر هبة المصريين، الاستمرار والتغير في تاريخ مصر، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف، مصر والعهد القديم، مصر والهللينية، مصر والمسيحية، مصر والإسلام، وأخيرًا مصر والغرب.

أولًا- مصر هبة من؟ :

يتنازع توينبي وهيرودوت هذه الفكرة، فمصر هبة النيل عند الأخير، ظلت تضم بركًا ومستنقعات طائشة، ولم يهذّبها إلا المصريون الأوائل [٣].

كيف؟ كان تحدّي الطبيعة الجامحة إبان التحوّل المناخي الحاد في نهاية عصر الجليد. إذ سرعان ما تحوّلت مصر من غابات خضراء زاهرة إلى صحراء يشقها نهر لم يروّض بعد [٤]، ومثّل ذلك الوضع تحدّيًا وجوديًا للأقوام آنذاك.

---

(١) تبدو تسمية العصور (طولونية وأخشيدية...) غير موضوعية، والأجدر أن نبحث فيها عن ملامح التنوير أوالنهضة...إلخ. وفجأة يظهر العصر الحديث (مع محمد علي أو قُبيله) وكأن لم يكن قبله أية إرهاصات. راجع عن تاريخ مصر آنذاك: Mueller, op. cit.

(٢) وفق تعريف هيجل للتاريخ، وذاك مجرد افتراض، إذ يمكن اعتماد مفاهيم أخرى.راجع:
G.W.F. Hegel, Philosophie der Geschichte, in: Werke in 20 Baenden, B. 12, 3. Afl., Suhr-Kamp, 1971, 1992.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، مط. دار الكتب، القاهرة٢٠١١ ، فصل:مصر هبة المصريين. ولهيرودوت مقولات سائرة: مصر أم الدنيا، والمصريون أكثر شعوب العالم تقوى، وقد سبقوا اليونان إلى أعياد الآلهة واحتفالاتهم... راجع: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة : محمد صقر خفاجة، تقديم : أحمد بدوي، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٥٩ ومواضع أخرى. وعن هيرودوت: Posener, Lexikon, S. 101

(٤) يرجح أن تلك الفترة الجافة (حوالي ٨٠٠٠ ق.م) سبقتها مراحل جفاف متناثرة. فمنذ نحو عشرة آلاف سنة حدث التصحّر في مصر، ليشكّل تحديًا خطيرًا للإنسان المصري.. فايز علي: إنسان ما قبل التاريخ: ٢: ١٠٥.. ومؤلفات: رينيس، هاولز، Knapp, Petrie, Hayesالمشار إليها في الدراسة.

وكانت ثمة استجابات شتى، لعل أمثلها التحوّل من حياة القنص وجمع الغذاء إلى الرعي فيما تبقى من مراعٍ في الوادي وبعض الواحات.

هنالك تجلّت أهمية الكدح في سبيل الإفادة القصوى من ذلك الشريان الحيوي، الذي فرض الوحـدة على الأهلين، فطفقوا يتعاونون في شـق الترع والمسـاقي، وردم المسـتنقعات اتقاء لشرور الملاريا والأمراض، وتوطئة لحياة المرعى ثم الزراعة[١]. هكذا فكروا في استئناس الحيوان بصورة أكبر، واستزراع النبات الذي كان ينمو بريًا من قبل[٢].

أولئـك الـرعاة (الجدد) هم الصفوة المبدعة التي عناها توينبي، وغربال بقي أمينًا لأسـتاذه، إذ يفترض أن من الرعاة من اتجه صوب الشمال، ليتلاءم مع مناخ أميل إلى البرودة مستغلًا أصواف رعيتـه من الحيـوان في صنع ملابس تقيه البرودة، وأما الذين اتجهـوا صوب الجنوب حيث المناخ يتراوح بين الحرارة المعقولة والمناخ الاسـتوائي أو شـبه الاسـتوائي؛ فلا شـك أنهم استحدثوا من المأوى والملبس ولوازم الحياة ما يلائم ذلك المناخ[٣].

وإذا كانت المبادرة المناسبة تسعف صاحبها، فلا شك أن انعدام المبادرة الملائمة أدى بأصحابه إلى الفشل، فلم يبحثوا عن مكان جديد، ولم ينجحوا في تغيير أساليب حياتهم، فواجهوا الردى. وتلك الرؤية في تصوّرنا – لا ترفض القدر ولا تعاديه، فالإيمان بالقدر يدفع صاحبه إلى العمل إذا كان ذا همّة، وإنما التذرّع بالقدر المجهول هو الذي يقعد بالكسول.

---

(١) راجع: سـليمان حزين: البيئة والإنسـان والحضارة في وادي النيل الأدنى – في: تاريخ الحضارة المصرية، النهضة المصرية، مجلد ١، ص ٣٥ وما يليها، وله أيضًا: حضارة مصر – أرض الكنانة، ط١، دار الشروق، القاهرة ١٤١١/١٩٩١ وأيضًا: بريسـتد (جيمس هنري) : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة : حسـن كمال، ط١، وزارة المعارف، القاهرة ١٩٢٩، ص ١ وما يليها.

(٢) شـهدت تلك الفترة اسـتخدامًا موسعًا للآنية الفخارية لحفظ الطعام وطهيه، وتطور معدّات الصيد أيضًا.. فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ١٠٥ وما يليها. وقد شـهر تقسـيمان للحضارة وفق آثار الفخار لـ: Petrie, Kaiser ، أيضًا مادة فخار – لدى: سونيرون وآخرين: معجم الحضارة المصرية، ترجمة : أمين سلامة، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٥٢.

(٣) غربال: تكوين مصر، ط. هيئة الكتاب ١٩٩٠، ص ١٨.

ونضيف كذلك أن حضارات ذلك العصر – وهي تدخل غالبًا في العصر الحجري الوسيط – تنتشر معظم مواقعها في الواحات الكثيرة التي بدأت آنذاك تجتذب الرحّل، بما ضمته من مصادر الحياة وأهمها الماء لتجتذب إليها الحيوان والبشر جميعًا. والواحات آنذاك كانت أكثر عددًا وأوسع نطاقًا من الآن. وأما في الوادي فمواقع السبيل بكوم أمبو، والشيخ فضل بمصر الوسطى، وفي الكاب قرب إدفو، والمحلات القارونية بالفيوم، وفي حلوان أيضًا [١].

هكذا تجلّى دور القلة الخالقة في نشأة المدنية بتعبير توينبي. "وليكن التفسير ما يكون، فإن مصر، مصر التي تشكلت على هذا النحو المفاجئ المثير، قد سيطرت هي أيضًا على مصائر أبنائها، واقتضتهم ثمن بقائها على الشكل الذي صنعوه. هذا هو موضوعنا"[٢].

ولعلنا نقول إن الحضارة نشأت في مصر مزاجًا بين إرادة البشر والحتم الجغرافي، متمثلًا في النيل وعوامل المناخ الأخرى، فلم تكن مصر أبدًا هبة النيل وحده بل هبة المصريين أيضًا.

ثانيًا- الثبات والتغيّر:

هما مبدآن متناقضان لكنهما متلازمان، وقد تنازعا تيارات الفلسفة ومدارسها منذ القدم. وإذا كانت الطبيعة مبدأها الحتمية؛ فإن الروح – كما يقول هيجل – جوهره الحرية [٣].

وإذا كان الحتم الطبيعي قد يعني اطراد ظواهر الطبيعة حتى تبدو ثابتة؛ فإن الحرية تعني التغيّر فيما تعني.

---

(١) كان للشرق الأدنى دور كبير في حضارة تلك الفترة، فعرفت مثلاً الحضارتان النطوفية والغسولية في فلسطين. راجع: فايز علي: المرجع السابق: الموضع نفسه .

(٢) غربال: تكوين مصر ٢٠١١، ص٩.

(٣) توجد هذه القسمة الثنائية أيضًا عند كانط (ت ١٨٠٤م) سلف هيجل العظيم. إذ تسود الضرورة عالم الفينومينا (الظواهر) ولاتوجد الحرية حقًا إلا في عالم النومينا (الحقيقة) الذي لا يدركه إلا العقل العملي (الضمير). عن كانط:

1.Kant, Werke in 12 Baenden, Suhrkamp,Frankfurt,s.a.Atlas Phil.,E.R Sandvoss,Geschichte Der Philosophie,dtv Vrlg.,Muenchen1989, B. I, S. 48, 91, u.s.w.

وما انفك باحثو الحضارة يتحدثون عن الثابت والمتغيّر [١] ويعرض مؤرخنا غربال لتصورات فلاسـفة التاريـخ والحضارة مثل كونت وشـبنجلر، ويعتمد – مرة أخـرى – منهج توينبي، الذي عدّله باريتو وغيره من فلاسفة الاجتماع.

ولا يلتزم مؤرخنا– عن حق – بمفتاح واحد بل يحتفظ بسلسلة من تلك المفاتيح والمداخل لفهم نشـأة الحضارة المصرية وتطورها. فما النتيجة؟ جملة اسـتنتاجات جديرة بالمدارسة. حينما زار إرنست رينان (١٨٢٣–١٨٩٢م) مصر تفقد كشوف ماريت باشا الأثرية العظيمة [٢]، ولكن ماذا قال عنها؟ قال: "إن مصر ولدت شيخًا هرمًا. ومن الملائم ألا يبقى الإنسان شابًا طول عمره، ولكـن ليس مـن الطبيعي ألا يمر الإنسـان بمرحلة الشـباب"[٣]. قول معنـاه أن الثبات جوهر الحضارة المصرية، منذ نشأتها، فأساليب معيشة الفلاح في القرن التاسع عشر لا تكاد تختلف عن تلك التي اصطنعها أسلافه منذ ألوف السنين. ودلالة ذلك أن لا تطور ولا ابتكار [٤].

ونظرًا لتعصب رينان للحضارة الهللينية ومقولات فلاسـفتها ومن جاء بعدهم من مفكري أوروبـا؛ يبـدو من المفهوم أن يقول عنه غربال: "وخلاصة مـا رأى [أي رينان] في مصر القديمة

(١) مثل جوسـتاف لوبون (١٨٤١ – ١٩٣١) الذي أعلى من شـأن العقل الجمعي وأثره في سـلوك الأفراد ناحيًا نحو الفلسفة الوضعية، ومن العوامل الثابتة أيضًا الأرض والإقليم والمناخ والعرف وعوامل الجغرافيا، وأما المتغيّر فيشمل عوامل كالهجرة والغزو والآراء الدينية: لوبون: سرّ تطور الأمم، ترجمة: فتحي زغلول، دار الفرجاني، القاهرة، ص٩، ٢١، ٤٨..

(٢) كان ماريت رئيس هيئة الآثار، وأشرف على تنقيبات عدّة في معبد حور بإدفو والسـيرابيوم بسـقارة، وأسـس المتحـف المـصري (القديـم) ، ولما توفى سـنة ١٨٨١ تم دفنه في حديقـة المتحف المصري بالتحريـر وإقامة تمثاله الكامل واقفًا أمام قبره. راجع:

J.P. Corteggiani, Das Museum Kairo, Nottbeck Vrlg., Koeln 1978, S. 9 ff.

(٣) غربـال: تكويـن مصر، ٢٠١١، ص ١٤–١٥ وعن ماريت و رينان ورحلته إلى مصر(١٨٦١ ثم ١٨٦٤م) راجع: ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء القرن ١٩، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٤، جـ١، ص ٢٦٩.

(٤) يمكننـا الـرد على رينـان بالإشـارة إلى إبداعات المصريـين الأدبيـة ذات الاتجاهات والأنـواع المتباينة مثل تعاليـم الوزيـر بتـاح حتب (حوالي ٢٥٥٠ ق.م) والملـك خيتي الرابع (حـوالي ٢٠٧٠ ق.م) وبردية اليائس من الحيـاة...وهي نمـاذج صارخـة للتجديـد والنقـد...فايـز عـلي: الأدب المـصري: جـ٢.

H. Brunner, Altaegyptische Weisheit, WBG, Darmstadt 1988.

أيضا: سـليم حسـن: الأدب المصري القديم، ١٩٤٥، كتاب أخبار اليوم، عدد ٢ ، ديسـمبر ١٩٩٠، ج١.

أنها حضارة قيّدها الاستبداد الدينيّ والسياسي"[١]. ولا عذر لدى رينان – في تصورنا – في ضوء تلك الكشوف الباهرة من آثار مصر، التي نالت تقدير شمبليون وعلماء الآثار المصرية لا سيما الفرنسيين منهم إلا أن يكون التعصب رائده [٢].

ولذلك يفنّد غربال – عن صواب – مقولة رينان غير المنصفة وأضرابها، فيوضح أن الأهرام والمعابد والمقابر المنيفة إن عبّرت عن نضج الحضارة – لا شيخوختها؛ فلقد سبقتها أطور من حضارات ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات [٣].

ما أجمل رد غربال ! والحق أن البحث في حضارات ما قبل التاريخ مهم بل واجب حتى نفهم كيف ظهرت حضارة الأسرات، بيد أن ثمة صعوبات كثيرة تكتنف ذلك البحث، ومن أهمها عدم وجود وثائق إذ أن الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد [٤]، فضلاً عن قلة آثار تلك الفترة نظرًا لتعرّضها لعوامل الفناء والضياع .

ويعبر مؤرخنا سريعًا من العصر العتيق والدولة القديمة إلى عصر الانتقال الأول فالدولة الوسطى، التي تنتهي بحلول الهكسوس على سدة الحكم، وطردهم، وبذا تقوم الدولة العالمية

---

(١) غربال: المرجع السابق: ص ١٥ وما يليها.و كذا اعتبر رينان فلسفة المسلمين مجرد فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية تعصبًا للجنس الآري.

(٢) كان تفسير الهيروغليفية خطوة أساس لفهم الحضارة المصرية.. وقد أسهم فيه تسويجه وأكربلاد وتوماس يونج وغيرهم، ولكن شمبليون كان أسعدهم حظًا.راجع:

B. Walterson, Introducing The Egyptian Hieroglyphs, Edinburgh, Posener, Lexikon, S. 103.

فايز علي: اللغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية، القاهرة ٢٠٠١

(٣) ما قبل التاريخ يشمل: العصر الحجري القديم منذ نحو مليوني سنة، وعصوره الثالث أو الأدنى: حتى (حوالي ١٠٠٠٠٠ ق.م) ، الثاني أو الأوسط: حتى (حوالي ٤٠٠٠٠ق.م) ، الأول أو الأعلى: حتى (حوالي سنة ٨٠٠٠ ق.م) ، العصر الحجري الوسيط (٨٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق.م) والعصر الحجري الحديث (٥٠٠٠ – ٣٨٠٠ ق.م) وأما ما قبل الأسرات فيشغل فترة تقريبية من (حوالي سنة ٣٨٠٠ إلى ٣١٠٠ ق.م). وفي ذلك الإطار تشعبات وأقسام عدّة .

(٤) عرفت الكتابة الهيروغليفية في الأسرة الأولى. والرأي أن ثمة مراحل تمهيدية سبقت ظهورها في عهد ما قبيل الأسرات، وتلك استنتاجات مبنية على ما تجود به الحفائر.. كما فعل Breasted, Petrie, Kaiser, Dreier... ممن أشرنا إليهم ومؤلفاتهم في: ما قبل التاريخ .

(الدولة الحديثة) التي يُسميها مؤرخنا الإمبراطورية، ويقسمها آخرون إلى إمبراطوريتي التحامسة (الأسرة ١٨) والرعامسة الأسرتين (١٩، ٢٠)[١].

ويفسّر ثـورة إخناتون الدينيـة بأنها كانت محاولة (الـروح) للبحث عن الهـدوء والطمأنينة المفتقدين رغم إنجازات (الإمبراطورية) العسكرية وثرائها المادي[٢].

كذلـك يـرى أن مـا تبقى من مصر في عصر الأسرات الأخـيرة (من الأسرة ٢٠ حتى ٣٠) كان نـواة متحجـرة، نظرًا لثبات النظـام الاجتماعي القائم على ضبط النيـل، وانطواء مصر على نفسـها بينمـا طفـق العالم يتغير من حولهـا. ويمهّد بذلك كله لمعالجة مقدم الإسـكندر الأكـبر[٣].

ونقرّر إجمالًا أن الدولة الحديثة لم تقم على التوسّع الهجومي، ولذا فهي تختلف - في تصوّرنا - عن إمبراطوريات الإسكندر رغم فكره الإنساني المتطور والرومان من بعده، وكذا الإمبراطوريات

(١) يعتبر بريستد - عن حق - أن منخبرع تحتمس الثالث (من ٣ مايو ١٥٠١ق.م - ١٧ مارس ١٤٤٧ وفق بريستد) أول رجل يؤسـس إمبراطورية على وجه الأرض. وقد استكمل بالطبع جهود أسلافه، ولكنهم جميعًا لم يستهدفوا التوسـع في ذاتـه بخلاف بونابرت مثلًا. وقد أحسـن صنعًا مؤرخنا إذ لم يلقب تحتمـس بنابليون مصر. ويدخل في فترة حكمه المديدة عهدا تحتمس الثاني وحتشبسـوت، وثلاثتهم إخوة غير أشـقاء، وأبناء تحتمس الأول وفق بريستد أيضًا: تاريخ: ص ١٧٣، ١٨٨ وما يليهما، وعن تاريخ مصر آنذاك:

E. Hornung, Grundzuege der Aegyptischen Geschichte, WBG, Darmstadt 1978, 2. Afl., S. 72 ff.

(٢) وإن ترتبـت على انتصـارات التحامسـة والأمنحتبيين وغيرهم غنائم وثراء، فإن حضـارة مصر آنذاك كانت لها ركائزهـا المعنويـة الروحية وفي صلبها عقيـدة الخلود التي تجلى صراع الخير والشر الواقـعي، وهو ما يعكس عدم طمأنينة المرء في الدنيا، بينما تقدم كتب الآخرة فلسفة عميقة في انتصار الخير أخيرًا,و تلك هي الطمأنينة الحقة. راجع دراما الصراع في:

G. Roeder, Urkunden zur Religion des Alten Aegypten, 1 Afl., Eugen Vrlg., Duesseldorf 1978, S.120.

(٣) لذلـك قدمـت شـعوب البحار عن مصر صورة شـعب متجهم على غـير الحقيقة كما يـرى مؤرخنا عن صواب. وشـعوب البحار ظهـرت حوالي ١٢٠٠ ق.م فصاعـدًا لتقـضي على الإمبراطورية الحيثية، ومنهـم الدانان والشردن السردينيون؟ والتشـكل صقليون؟ والترشـو أجداد الإتروسـكان؟ والبرشـت فلسـط والأخيرون من أصل إيجي.. راجع: كوتريل: الموسوعة الأثرية العالمية، ترجمة :محمد عبد القادر، هيئة الكتاب ، القاهرة، ص ٥٠٥-٥٠٦.

الأوروبية الحديثة.

أما مقبرة سيتي الأول (حوالي ١٣٠٩- ١٢٩٠) :فيضرب بها مؤرخنا المثل لحال عدم الاستقرار التي اعترت الروح المصري آنذاك، بيد أننا نرى في نقوشها تصويرًا لصراع الحياة الأبدية وعوامل الفناء، وذاك صراع أصيل أدركه المصري في "كتب الآخرة" قبل هيراقليط بأزمان، الأمر الذي يعلي من شأن الفلسفة المصرية (القديمة).

كما أن انتساب ذلك الملك العظيم إلى ست(إله العواصف والصحراء) عبّر عن رؤية سياسية مهمة، وذلك أنه كان حامي البلاد ضد القادمين من الصحراء، وهم أعداء مصر[١].

وعهد سيتي مهم جدًا لأسباب منها أنه جاء بعد أزمة العمّارنة بنحو نصف قرن ليعلن عن إعادة الميلاد (وحم مسوت) renaissance أي عصر النهضة. وقد كان في جانبه الحربيّ محاكاة أمينة لجهود تحتمس الثالث (ربما كان أعظم الفاتحين القدماء) ، وفي جانبه الحضاري إحياء للعمارة الرشيقة والفنون المتقنة (معبد أبيدوس) واستتبابًا لعقيدة آمون – رع[٢].

ثالثًا- الحكومة والمجتمع والإنسان:

لعل أبرز ما يميز النظام الاجتماعي في مصر هو المحافظة التي تتجلى في التقاليد والعادات الراسخة، التي يبدو أنها لا تكاد تتغير عبر الأجيال، وإن تغيرت ففي بطء شديد. ومعنى ذلك أن إلزام المجتمع يصير مقدمًا على التزام الفرد.

---

(١) سيتي أي المكرّس ل (ست) ، وقد أنزل رع منزلة عالية.. بقيت مومياؤه مفخرةً لخبراء التحنيط القدامى، إذ يبدو كالنائم ليشهد بعظمة مصر.. فايز علي: التحنيط ودلالاته الفلسفية والتاريخية، محاضرة بقصر ثقافة هليوبوليس ١٩٩٣.أيضًا:

A.- P. Leca, The Cult of The Immortal, New York.

(٢) في الجيل السادس بعد أخناتون الذي نحّى آمون جانبًا، وأحلّ محلّه أتون.ويقال – بترجيح مقبول جدًا – إن معبدي أبو سمبل بُدئ في تشييدهما في عهد سيتي إ، وإن استكملها ابنه رمسيس الثاني، الذي ضحى بالإتقان الذي تتسم به عمارة سيتي، لينشر منشآته في كل مكان. وأما معبد أوزير بأبيدوس فمن أعاجيب العمارة في العالم. راجع:

A. Zayed, "Abydos", EAO (Egyptian Antiq. Org.), Cairo.

يمهـد مؤرخنـا بتعريفات علماء الاجتماع للوحدات التي ظهـر منها الاجتماع البشري منذ فجـر الحضـارة[١]. ويخلص إلى أن الفـرد – وإن كان عماد المجتمع في مـصر – فقد كان ضحيته أيضًـا، ويصـدق هـذا – من وجهة نظـره – في العصور الأولى ؛ حيث ولي الحكـم ملوك آلهة ثم أتباعهم أنصاف الآلهة أو أشـباههم، وحتى في عصر الديانات السـماوية، فـ « العقيدة الدينية لم ترجح كفّة الفرد كما كان ينبغي لها أن تفعل»[٢]، وذلك أن أولي الأمر كانوا هم «من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية » ، كما أنهم افترضوا جموح الطبيعة البشرية نحو الشر.

ولعـل مؤرخنـا قد اعتمد – ضمنًـا – منهج الأطوار الثلاثة، الذي يفـرّق بين حكومة الملوك الآلهة (سواء الفراعنة أ وخلفائهم من البطالمة والقياصرة) وحكومة الشرع السماوي (المسيحية والإسلام) ثم الحكومة الوضعية وفق أحكام العقل البشري[٣]، وإن كان قد أقر مبدئيًا أنه لا يجوز اصطناع مقاربة واحدة لتفسير التاريخ كله.

ويقـف مؤرخنـا مليًّـا بمسـألة مهمـة، وهي تحقـق الوحـدة المصريـة الأولى بين مملكتي الشـمال والجنـوب[٤]. فـيرى عـن صواب – ربمـا – أنها تمّـت صلحًا لا قسًرا كمـا يصوّر البعـض[٥]. وكانت اسـتجابة عظيمة لتحدّي الطبيعـة وعمادها النهر (فيضان النيل وتحاريقه ونـدرة المطر...إلخ) ولولا

---

(١) مثـل البطـن والمعشر والقبيلـة و عصبة القبائل. وتلك التجمعات البشرية نشـأت عنهـا المحلات الأولى التي تطورت عنها القرى والمدن والأقاليم. راجع: أحمد الخشاب: علم الاجتماع ، القاهرة١٩٦٣.

(٢) غربال: تكوين ١٩٩٠، ص ٤٧.

(٣) كمـا فعل أوجسـت كونـت (ت ١٨٥٧) أحد ممثلي الفلسـفة الوضعيـة: Positivism، وهي من المذاهب المعارضة للميتافيزيقا. وقسمته داحضة، فحضارة مصر القديمة قامت على علوم متطورة تعزّ محاكاتها حتى في عصرنا هذا، فكيف ندخلها قسرًا في مرحلة الميتافيزيقا أو الأسطورة..؟ راجع عن كونت والوضعية: dtv-Atlas, S. 165 f.

(٤) هي في الواقع الثانية، إذ سبقها عصر الاتحاد الأول حوالي سنة ٤٢٤٢ ق.م بزعامة المعادي كما وضحنا.

(٥) غربـال: تكويـن: ٣٧. واسـتنتاج مؤرخنـا يبـدو سـليمًا، وأمـا المعارضـون فيذهبـون إلى أن نعرمـر قـد صـوّر على لوحته وهـو يقمع أعـداءه من أهل الشـمال أي الدلتا وذاك تفسـير قسري. يراجـع:

Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago 1965; G. Maspero, Geschichte der Kunst in Aegypten, uebz. Rusch, 2. Afl, Hoffm. Vrlg. Stuttgart, S. 23.

تلك الوحدة الطوعية لتعثرت جهود ضبط النهر وتقويم واديه الذي كان يعجّ بالمستنقعات والأحراش.

بيد أن القول إن مصر سادها حكم مركزي (مطلق في أغلب الأحيان) - كما يذهب مؤرخنا - فيه نظر. فلم يكن أبناء الشمس من ملوك الأسرة الخامسة مثلًا يتمتعون بسلطان أسلافهم: سنفرو وخوفو وخفرع من الأسرة الرابعة ولا أسلافهم من الأسرات الأولى وبعد نهاية الدولة القديمة سادت فوضى عارمة، وإن أسفرت عن قيام حكومات محلية لم تتمتع بسلطة مركزية بما في ذلك أسرة أهناسيا القوية (الأسرتان التاسعة والعاشرة)[١].

كذلك لا يمكننا الزعم بأن الدولة الوسطى تمتع ملوكها بسلطة مركزية مقارنة بالأسرة الثالثة أو الرابعة مثلًا، بل كانت أقرب إلى اللامركزية وهلم جرًّا[٢].

وصفوة القول إنه لا يوجد نسق واحد يمكن أن تندرج فيه كل فترات التاريخ المصري وعصوره، وهذا ما نخالف فيه أستاذنا.

ويبدع مؤرخنا فيقول عن حكومة مصر (الفرعونية) وهو يناقش آراء رينان: «إنها كانت حكومة الفنيين. والفنيون يكونون إذن أول طوائف مجتمعنا المصري»[٣]. وكيف لا يكونون كذلك، والمعبود بتاح - إله الدولة القديمة أيضًا - كان ربهم، أي رب الحرفيين والصناع؟[٤] وكان

---

(١) وهي من أثرى فترات التاريخ بالأدب والفكر السياسي، مما يثبت أولية مصر على اليونان مرة أخرى. وقد وضحنا ذلك في: تعاليم الملك الفيلسوف - فلسفة السياسة قبل أفلاطون وأرسطو، القاهرة ٢٠٠٥، أيضًا في فلسفة تاريخ مصر: ج٢،ص١٠٤..أيضًا: Brunner, Weisheit, S.S. 137 ff, 358-367.

(٢) أغفل بعض مفكري الحضارات - مثل راسل وتوينبي التباين الظاهر بين مراحل التاريخ المصري (الفرعوني) مما أضر باستنتاجاتهم الكلية على نحو ما وضحناه. وللأسف أن مؤرخنا تابع ذلك هو وبعض المفكرين مثل جمال حمدان في: شخصية مصر.

(٣) ذاك أبلغ رد على أندريه ريمون - وهو مؤرخ عظيم أيضًا؛ إذ يقول:إن مصر لم تعرف نظام الطوائف المهنية قبل العصر العثماني في: الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن ١٨، ترجمة : ناصر إبراهيم - باتسي جمال الدين، المجلس الأعلى الثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ج ٢ ص٧٣٤؟ هنالك تتضح أهمية الرؤية الكلية لتاريخنا.

(٤) تلك من الملاحظات المفيدة للمؤرخ. راجع: Ivimy, op. cit., P40. وتوضح فائدة القراءة التأملية للتاريخ. عن المعبود بتاح : Posener, Lexikon, S. 205 f; Roeder, op. cit.,S.57ff.

منهم بالطبع مخترعو الكتابة [١].

هكـذا ظلـت الوحدة قائمـة على التركيب بين عنصرين أو أكثر. فالتـاج مركب من تاج الشـمال الأحمر وتاج الجنوب الأبيض [٢]. وهناك الشـونتان والفيلقان في (الجيش الموحّد)، ومقبرتا الشـمال والجنـوب (لفرعـون)، والمعبودتان الحاميتـان للمملكتـين، ونباتا البردي واللوتس الرمزيتان..

ويدعـم مؤرخنـا مبدأ المحافظة مرة أخرى، إذ عمد فرعـون – في رأيه – على تقريب حديثي النعمة ورفعهم، كما أوصد أولئك الفنيون الأبواب أمام الدخلاء، وهكذا حافظ النظام على بقائه وبالأحـرى جمـوده [٣]. وظلت القلّة تسـتأثر بنتاج الغالبية من الكادحـين، وإن عنيت الحكومة بالقوانين «لكفالة حسـن السلوك والسـيرة القويم». وأما في عهود البطالمة والقياصرة فقد عمّت البلوى، واستشرى الاستغلال، فلم يجن الأهلون من النظام القديم إلا مساوئه.

ومـن جانبنـا نقدّم نمـاذج داحضة لذلـك التصوّر الذي ينـال في الواقع قبـولًا لدى مفكري الحضارات والاجتماع, منها مثلًا أدب عصر الانتقال الأول، الذي يعلي من شـأن الفرد وفكره، ويثـور بالأفكار والمعتقدات الموروثة، فيطرح الشـك فيها علانية، ويحض إما على تشـاؤم مفرط أو تفـاؤل يقـود إلى اغتنـام الملـذات [٤]. كذلـك لا يمكن أن تدخـل نماذج النحـت الإبداعية

(١) كانـت حرفـة الكتابة عالية المنزلة (راجع تمثالي الكاتب باللوفر والمتحف المصري). إلخ. وتعاليم خيتي بن دواو. إف راجع:سليم حسن:الأدب: ١:٢٢ Maspero, op. cit., S. 87 ff

وظلت الكتابة حرفة في التراث العربي أيضًا (كتاب الصناعتين – أي النثر والشعر – للعسـكري مثلًا) .

(٢) ظـل للونـين رمزيتهمـا الطاغيـة عبر تاريخ مـصر، فالأبيض أوزيـر والأحمر سـت، والقاسـمية والفقارية من (المماليك) حتى الزمالك والأهلي عن التاج المزدوج راجع مثلًا: Posener, Lexikon, S. 138.

(٣) لـم يكـن إيمحتـب ولاحم يونو(معمارا زوسر وخوفـو) ولا أضرابهما من حديثي النعمـة، ولا كاجمني أو بتاح حتب.. وأين نظراء نعرمر أو خع سـخم وي أو سـنفرو أو أمنمحات أوسـنوسرت.. إلخ. بين ملوك العالم؟ راجع عنهم: Posener, Ibid.و مراجع أخري عن تاريخ مصر: بريستد,سليم حسن, زايد...

(٤) برهنّـا في: فلسـفة التاريـخ: ج؟: ص٤: أو مـا يليهـا، ودراسـات أخـرى على سـبق أولئـك الأدباء لسـارتر وكاميـه ومفكـري الوجوديـة والمذاهـب الحديثة.وكذا دراسـتنا عـن: الثـورة الاجتماعية-مؤتمـر الجمعية التاريخية:أبريـل٢٠١٢.

من الدولة الوسطى وفترة العمارنة. بل حتى من الدولة القديمة والدولة الحديثة في باب الفن التقليدي الجامد أبدًا. من تلك تماثيل أوسركاف من الأسرة الخامسة أو سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة، وهلم جرًّا[١].

ولا غرو أن تمتد مصر بفكرها وحضارتها إلى خارج حدودها في كل اتجاه بالعلم ثم لا ترود مجال الحرب إلا دفاعًا ضد الغزاة، وفيها نشأت الفلسفة، والفكر السياسي والاجتماعي، ومبادئ الأخلاق والإبداع الفني والأدبي قبل اليونان وروما وأوروبا الحديثة[٢]. وذلك كله ما يتعارض مع قول غربال السابق.

ويستنبط مؤرخنا حكمًا عامًا، وهو أن مصر ظلت ضيعة، وإن اختلف لقب حاكمها أكان سلطانًا من المماليك أم واليًا لقيصر روما.. إنه باختصار الحكم المطلق« والبلاء قديم قدم إنشاء مصر»[٣]، ففرعون مصر ملك إله، توهم أنه خالق مصر، ومصر ملك خاص له، فكان ملكًا يخدم أهواءه ومسراته وتمجيده في هذه الدنيا.. فلا عجب أن نادى في الملأ (أنا ربكم الأعلى)[٤]. وهو حكم يستند في رأينا – إلى مقولة توينبي: «خلال الخمسة أو الستة آلاف من السنين الماضية استأثر قادة المدنيات المختلفة بثمرة كد الجماعات وحرموا عبيدهم حقهم فيها دون تردد أو وخز ضمير»[٥].

ويلتحق بالركب جمع منهم مثلًا جمال حمدان، الذي يقول: "لا يعرف تاريخ مصر من ينكر

---

(١) تقول برانتون إن رأس تمثال سنوسرت الثالث الجرانيتية تزري برأس نفرتيتي في متحف شارلوتنبرج في برلين – حللنا الفن في الدولة الوسطى في: فلسفة التاريخ: ج٢. وقارن: Maspero, op. cit., S. 115 ff.

(٢) اعتبار تلك الأوليات لمصر – عن جدارة وموضوعية لا عن تعصّب – هو لبّ التمصير – في رأينا – سواء في الجامعة أو في مراكز البحوث أو الإعلام.. وهلم جرًّا.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٣٥-٣٨. وللأسف أن هيجل وصم الشرق القديم – ومصر منه – بالعبودية، وكذا كونت. وقد فندنا ذلك في: فلسفة التاريخ: ١: ٤٦، تعاليم الملك الفيلسوف، مواضع شتى.

(٤) القرآن لم يسمّ ذلك الملك، ومن غير المنطقي الحكم على كل ملوك مصر بمثل ذلك الحكم عدم استغراق الحد الأوسط في القياس. راجع مثلًا: الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، طه: ٦٣-٦٤، النمل: ١٢-١٤، وهلم جرا.

(٥) غربال: المرجع السابق: ٣٨. وحكم توينبي أيضًا غير مبني على استدلال منطقي سليم.

أن الطغيـان والبطـش من جانب، والاسـتكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هي من أعمق وأسـوأ خطـوط الحياة المصرية عـبر العصور"[١]... وهلم جرًّا. واسـتناد تلك الأحـكام إلى الحتم الجغرافي وسـواه ليس مقنعًا.

وإذا كانت شـؤون الإدارة والحكومة لم تبحث بتفصيل كاف بعد، فإن إصدار أحكام كتلك المتقدمة لا يستند إلى مقدمات راسخة، فما يقال عن فرعون الخروج لا يستند على وقائع – بله حقائق – تاريخية.

وأما الحكم بمقتضى "ماعت" أي العدالة فيصلح مقدمة منطقية للاسـتدلال. كذلك آيات الإبـداع في التحنيـط والبناء والفلك، وفي الأدب والفلسـفة والفكر السـياسي الاجتماعي قبل فلاسفة اليونان بقرون عديدة. ويصعب أن يكون للمرء أجداد مبدعون كأولئك الفراعنة ولا يبـاهي بهم افلماذا توجـه كل تلـك الاتهامـات إليهـم بـلا مقدمـات منطقيـة ولا مـبررات؟.

بيد أن البطالمة والقياصرة رفعوا من شأن الأغراب الذين « مارسوا شئون تجارة السلع وتجارة الفكر » . « واستنزفت دماء الأهلين إلى آخر قطرة »[٢].

ومع مقدم المسـيحية ثم الإسـلام بُعثت الشخصية المصرية من جديد، ولكن حدّ من تحرّر الفـرد إيمـان الحكم بأن الشرّ متأصّل في البشر، وأن الناس خلقوا في مراتب ودرجات متفاوتة. ورغـم صـلاح النظرية الإسـلامية في إقامة العدل والمسـاواة والتكافل؛ فقد أوجـب الواقع « أن الحكم ينبغي أن يكون في يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية » .

---

(١) في صيغـة النـصّ تجهيل لمن لا يسـلّم بحكم حمدان! وثقة بأن ما يقوله يقـين مطلق مع أنه لم يبن ذلك الحكم على أيـة مقدمـات منطقية مقنعة: شـخصية مـصر: دار الهلال، القاهرة ١٩٦٧ (عـدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣) ص ٥٧. والعجيـب أن يحمـل كتابه ذلك العنـوان! وقد فنّدنا دعـواه ودعاوى مماثلة في: السـلطة والحق الإلهي في مصر، مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١١.

(٢) يبدو أن خفوت شخصية الفرد وراء حجب التقاليد والعادات الاجتماعية حدّ من الإبداع الفردي. وقد ذهب العقاد في تفسـير تخلّف الشـعر مذهبًا مقاربًا، فقد حفلت السّاحة بالعروضيين التقليديين، وأما البارودي (ت ١٩٠٤م) فقـد (بزغت مقومات الشـخصية البارودية مـن وراء حجب الأوضاع وأعبـاء العرف والاصطلاح) : العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، النهضة المصرية ١٣٥٥/١٩٣٧، ص ١٣٢.

ومن جانبنا نرى أن النظرية الإسلامية التي يذكرها غربال هي اجتهاد بشر يصيبون ويخطئون. وجميل أن نركن إلى الالتزام الخلقي بوازع الضمير لدى الأفراد، ولكن حسن النوايا في تلك الأمور قد يقود إلى فوضى [١]. لذلك فالحزم مطلوب وإلا قوضت دعائم المجتمع.

ونؤكد من جهتنا أن تاريخ مصر منذ التوحيد الأول لم يخلُ من مبادرة أفراد مبدعين، منهم مثلًا إيمحتب الذي يعزى إليه تأسيس العمارة الحجرية، فضلًا عن تعاليمه الحكيمة التي فقدت هي وتعاليم كاجمني الأكبر (كاإيرسو)، ولكنها بقيت محفوظة ضمنًا في تعاليم الحكماء من بعده: بتاح حتب وجدف جور وخيتي وأمنمحات... حتى آني وأمنمئوبت [٢].

رابعًا- المدينة والريف :

تقدّم أن مؤرخنا ابن الإسكندرية (المصرية أيضًا) . ولعلّ عبارته الرئيسية في هذا الفصل: أن الحضارة المصرية (قديمًا) ظلت ذات ثقافة ريفية بالأساس مما يوحي بأن ثمة تعارضًا – ولو لم يكن جوهريًا – بين الريف والحضر، مع أن الريف في اعتقادنا هو أصل الاستقرار والزراعة و من ثم الحضارة. وظهرت بنادر في مراكز الأقاليم حيث كان مقرّ إدارتها، وسوقها ومواسمها، وعباداتها المحلية أيضًا.

وأما الحضارة المدنية الحقة – أي الحضارة التي تنبع من حياة المدينة بالأساس – فهي الحضارة السكندرية، وبالأحرى حضارة مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر. وقد نشأت بالطبع مدن أخرى غير الإسكندرية منها توليماس في الصعيد [٣].

---

(١) كما حدث في فترة العمارنة تحت حكم إخناتون للأسف، فقد علا شأن الأفاقين والمنافقين، ورجعت البلاد القهقري كما يتضح من مراسلات العمارنة:

Watterson, Amarna:Ancient Egypt,s Age of Revolution,Tempus Pbl.,UK1991, pp. 50, 60, 82.

(٢) راجع نماذج لهؤلاء المبدعين في: H. Brunner, Weisheit

وأيضًا: ج. هاري: إيمحتب،ترجمته هيئة الآثار، و فيه يظهر عبقرية أيمحتب في العمارة و الطب و الحكمة وأسبقيته علي اسكلبيوس و إيبوقراط و جالينوس...

(٣) راجع: د. فالبيل: الناس والحياة في مصر القديمة، ترجمة : ماهر جويجاتي، ط١، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٩، أيضًا محرم كمال: تاريخ الفن المصري القديم، دار الهلال ١٩٣٧. و قد عولجت الحياة اليومية في جُلّ كتابات علماء الآثار. منها:

Ermann – Ranke, Aegyten und Aegyptisches Leben im Altertum, Mohr Vrlg., Tuebi ngen 1943.

وأما حضارة مصر في ذلك الطور فكانت مزيجًا من الحضارات المصرية والهيللينية واليهودية، وإن ظل الريف محتفظًا بتقاليده المصرية الخالصة المستمدّة من الميراث الحضاري المصري.

ويزداد الطابع المتروبولي تأكيدًا بمرور الزمن، فقد حرص الحكام الرومان على تحويل «عواصم الولايات – تلك المدن التي كان يطلق عليها اسم « متروبوليس » إلى بلديات ذات حكم ذاتي» رغبة منهم في قهر مقاومة المصريين، إذ رابطت القوات العسكرية في الأرياف، التي خصص دخل قراها للإنفاق العسكري....إلخ. لقد تمّ إذن فرض نظام مستمدّ من نمط « الدولة – المدنية» المعروف في الحضارة الهللينية [١].

والواقع أن حضارتي اليونان واليهود اعتمدتا على التنقل إن لم نقل الترحال، ومن ثم الاقتباس من هنا وهناك، وإن ذهب بعض المؤرخين الغربيين مثل جورج جيمس إلى حد اتهام أرسطو ومفكري هيلاس (اليونان القديمة) بالسّطو على ميراث المصريين الثقافي بأوامر من الإسكندر! [٢] وما يبدو لنا مبالغة بعيدة ليس إلا محاولة لتفسير ظاهرة عجيبة حقًا، وذلك أن يذيع فجأة شأن الحضارة الهللينية مع ظهور إسكندر وفتوحاته المدوية [٣].

فالأمر إذن لا يعدو – عند البعض – كونه سطوًا على الحضارات القديمة، ونهب تراثها الثقافي، ونسبته إلى تلك الفئة من شعوب البحار. ولذلك فتلك الحضارة (المدنية) لم تكن إلا نسخة شائهة– وإن تكن براقة لحضارة الريف .هكذا نرى.

وآية ذلك ما يقوله مؤرخنا – ولكن في سياق مختلف – عن تطوير عبادة سيرابيس في العصر البطلمي لتكون تأليفًا بين معتقدات مصرية وأخرى هللينية، بصرف النظر عن نصيبها

---

(١) أفاض توينبي عن عبودية الحرفيين في هيلاس القديمة وتأليه المدينة – الدولة – توينبي: تاريخ الحضارة الهللينية,ترجمة : رمزي جرجس,هيئة الكتاب٢٠٠٣: ٢٠٩ وما يليها.

(٢) ج. جيمس: التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة. شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٥ وما يليها. راجع عن إسكندر Bury, op. cit., 675

(٣) نعتقد أن الإعجاب بالبطولة جار على الموضوعية كثيرًا في كتابة تاريخ الحضارة الهللينية وأثرها في العالم. راجع Bury, Ibid .

من النجاح [١].

كذلك حديث مؤرخنا غربال عن أون وطيبة وأخيت أتون وسواها من المدن المصرية القديمة[٢]. وإن اعتبرها مدنًا كهنوتية، فهنا موضع خلاف آخر. وذلك أن المعابد في تلك المدن المصرية كانت تضم مؤسسات المجتمع كافة، ففيها المشفى، وبيت الحياة الذي يضطلع بوظائف التربية والتعليم، وفيها المكتبات. كما تنوعت أوقاف المعابد وملحقاته من مشاغل ومصانع وضياع وغير ذلك من أصول منتجة. هكذا ظلت تلك المدن حواضر ذات إشعاع مدني بمعنى الكلمة قبل ظهور مدنية الإسكندرية [٣]. **وهنا مفرقنا عما ذهب إليه مؤرخنا غربال أيضًا.**

أما حضارة اليهود فتعبير يبدو غريبًا في سياقه، ويكفي ما عبر عنه بريستد في «فجر الضمير» ، إذ يردّ إبداع العبرانيين – يعني أسفارهم المندسة – إلى تعاليم المصريين القدماء[٤]. وهذا ما سترد عنه مناقشة أكثر تفصيلًا. على أية حال كان لحضارة اليهود ـ في رأي مؤرخنا ـ أثر في تكوين مصر.

ويضيف مؤرخنا أن الرهبنة كانت رد فعل إيجابيًا، فقد عبّرت عن رفض المصريين للهيمنة الرومانية المتجلية في حياة المدينة الصاخبة، فاتجه الرهبان إلى الصحراء. ولم تكن ثورة الفلاحين كذلك إلا اعتراضًا على حياة المدينة الرومانية آنذاك.

ومع الإسلام أُعيد الاعتبار لحياة المدينة ودورها في المجتمع المصري، وإن كانت في بعض الرؤى "تفتقر إلى مراسيم إنشاء الأنظمة المدنية، ولكن مع ذلك لا مراء في أن مدينة القاهرة

---

(١) تلك كانت محاولة نبيلة من بطليموس الأول سوتير (٣٢٣ – ٢٨٣ ق.م) فأصبح سيرابيس مزيجًا من أوزير – أبيس وآلهة أخرى يونانية ومصرية:

F. Aly, Apiskult im Laufe der Aegyptischen Geschichte, Kairo 1988.

(٢) راجع: محرم كمال: مرجع سابق: ص ٨، ٤٣ وما يليهما.

(٣) راجع تخطيط أخيت. أتون تل العمارنة في: محرم كمال: مرجع سابق: ص ١٥٦ وما يليها..

Watterson, op. cit., p. 78 ff.

(٤) أشار غربال كذلك إلى نشيد أتون – قارن: بريستد: فجر الضمير، ترجمة : سليم حسن،، هيئة الكتاب: ٢٩١ وما يليها، سليم حسن: الأدب المصري (م.س) : ج٢ و ما يليها Watterson, op. cit., p. 61 ff .

الإسـلامية قامـت بنصيبهـا الأوفى في بناء مصر السـياسي.. بفضـل هيئاتها المدنيـة ومعاهدها الدينية..."[١].

ويضيـف إلى ذلـك الحركات الشـعبية وأثر الطوائـف الصوفية، وتمسّـك الأهلين بالقصص الشعبي، الأمر الذي خلق صلات قوية بين الريف والمدينة [٢]. و"شهد عصرنا الاتجاه نحو إدماج المدينة والريف في فكرة المواطنة المشتركة، ونمو فكرة الدولة".

وربما لا يتسـع المقام للحديث عن ظاهرتين مهمتين هما السـوق والمولد، وما يعكسـان من سلوكيات الحياة اليومية من جهة ، وطقوس الاحتفالات الدينية من جهة أخرى. ويكفينا إشارة هيرودوت- لما زار مصر- إلى أن المصريين سبقوا اليونان. والغريب أن يحافظ المصريون على تلك الأنماط من السلوك الاجتماعي عبر عصورهم إلى اليوم [٣].

ولـم يكن قصارى أمل المصري العادي أن يشـارك بالرقص واللهو في تلك الاحتفالات، بل كان له نصيـب مـن أوقاف تلك المعابـد، وحظ في رؤية تمثال (الإله) ، ونيـل الرفد والعون منه، والتماس مشورته في شئون حياته [٤].

وذلك كله يدل في رأينا علي اندماج المدينة و الريف في المواطنة المشتركة منذ القدم.

خامسًا- مصر والعهـد القديـم:

ظلت سيناء عبر تاريخ مصر معبرًا للمهاجرين واللاجئين والرحّالة، أولئك الذين قدموا من آسيا غالبًا. وثمة في الوثائق المصرية ما يستنتج منه بترجيح غالب أن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر لم تسبق عهد الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٩١ - ١٧٧٨) ، ولكن دون يقين جازم [٥].

---

(١) غربال: تكوين مصر (٢٠١١) : ص ٦٢-٦٣

(٢) عالجنا موضوع الأدب الشعبي في دراستنا السابقة: الأدب المصري: جـ ٤: ٢٠١ وما يليها.

(٣) هيرودوت يتحدث (م. س) : ١٥٩ وما يليها.

(٤) وآمن المصري بالنحوس والشعور كدأبه حتى اليوم. راجع دراستنا: معبد الأقصر، القاهرة ١٩٨٩.

(٥) أمر الرب أبراهام بالعبور (تكوين: ١٢: ١-٣) والرب أعطى الأرض لإبراهيم ونسله جميعًا - وليس أولاد يعقوب وحدهم - العلامة عادل غنيم: حائط البراق وليس حائط المبكى، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٩-١١.

ولـم تكن تلـك الرحلة التجارية المدخل الوحيد، بل نعلم من العهد القديم أن يوسـف قدم مصر أيضًا، وأنه صار وزيرًا لفرعون دون تحديد هويته: "فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكًا في أرض مصر في أفضل الأرض، في أرض رعمسيس كما أمر فرعون (تكوين: ٤٧: ١١-١٢).

هكذا أكرم فرعون وفادة يوسـف وأبيه يعقوب، وإخوة يوسـف، حتى أقطعهم أفضل أرض في مدينة رمسيس في شرق الدلتا [١].

ويغلـب على الظـن أن فرعـون يوسـف كان مـن الحكام الأجانـب - الهكسـوس - بناء على حسـابات تاريخية تقريبية ، واستبعادًا لفكرة أن يسـتوزر فرعون مصري شخصا أجنبيًا، فضلًا عن الجوار الجغرافي المرجح بين الهكسوس واليهود[٢].

هذا عن مجيء القوم مصر، وأما خروجهم فيربطه مؤرخنا - على نحو ما - بزوال عقيدة أتون في آخـر الأسرة الثامنة عـشرة (١٥٧٠ - ١٣٠٤ق.م) وتحديدًا بعـد زوال حكـم إخناتون (١٣٧٠-١٣٤٩ق.م) ، ذلك الملك الموحّد.

يقول مؤرخنا: « ولن تدهش إذا كان زوال سلطة عبدة أتون مرتبطًا بعض الارتباط باضطهاد بني إسرائيل في عهد الأسرة التاسعة عشرة - كما يرى المؤرخون عامة»[٣]. عبارة تعتبر اضطهاد بـني إسرائيـل واقعة تاريخية، ولكن دون دليل أو برهان في أيـة وثيقة تاريخية فيما نعلم، ودون تحديد هويّة فرعون.

---

(١) وهي أرض جاسان تك: ٤٥: ١٠، وفيها تقع مدينة رمسيس بر. رعمسيس وهي تانيس الحالية:
.Nagels enzyk lopaedie Aegypten, Genf 1967, S. 666 ff

أيضًا: سونيرون: معجم: ص ٩٣-٩٤.

(٢) هكسـوس مدمـج مقطعـين: حكاو. خاسـوت وتعني أمـراء البلاد الأجنبية أو مشـايخ البدو، في إشـارة إلى قادة أخلاط أقوام تسللوا إلى مصر آنذاك، فهم ليسوا شعبًا بعينه - راجع:
R.M. Engberg, The Hyksos Reconsidered; Studies in Ancient Oriental Civilization, 18, Chicago: 1939.

(٣) غربال: تكوين ٢٠١١: ص ٥٣. وعن إخناتون دراسات كثيرة منها:
C.Aldred, Echnaton,Luebbe Vrlg.uebrs.J.Rehork,B.Gladbach; B. Watterson, Amarna: Ancient Egypt's Age of Revolution, Tempus Pbl., UK: 1999 .

وعلى أية حال فالربط جائز نظريًا بين الهكسوس وبني إسرائيل على نحو ما تقدّم، ولكن ذاك لا يـبرر تأخـر طرد بني إسرائيل على ذلك الحين أي ما بعد وفاة إخناتون (حوالي سـنة ١٣٤٩ق.م) إذ أن طرد الهكسوس قد تم (حوالي سنة ١٥٦٧ق.م) على يد أحمس [١]، وبين التاريخين نحو قرنين من الزمان.

ويلاحـظ غربـال أن فترة العمارنة قد عبرت عـن ثورة دينية قادها الملك إخناتون بنفسـه، وهي بلا شـك كانت ثورة شـاملة في مجالات شتى منها الفكر واللغة والأدب، والعادات أيضًا [٢]. كما يشير إلى ما تضمنه نشيد أتون من مظاهر التوحيد الإلهي. ونقتبس هنا منه:«كل أسد يخرج مـن عرينـه ليفترس، وكل الثعابين تنسـاب لتلدغ، والظلام يخيّم، والعالـم في صمت في حين أن الذي خلقهم في أفقه»[٣]، والعبارة تعبر عن العناية الإلهية، ورحمة الله بمخلوقاته في سياق وحدة الوجود Pantheism [٤].

والشـبه بيّن بين تلك العبارة، وما ورد في المزمور الرابع بعد المائة: « الأشـبال تزمجر لتخطف ولتلتمـس مـن الله طعامها » (المزمور ١٠٤: ٢١) . من هنا ندافع عـن وجهة النظر القائلة بأصالة الحضارة المصرية وسـبق آدابها في ميادين شـتى، ولذلك نخالف الرأي القائل إن « اليهود» كان لهم أثـر في الحضـارة المصرية [٥]. بـل الواضح أن بني إسرائيل هم الذين أفـادوا من الحضارة المصرية إبان إقامتهم التي دامت أكثر من أربعة قرون.

---

(١) . وذلك في عهد ملكهم أبوفيس – راجع مقالنا: "الهكسوس بين الحضارة والبداوة" – مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١٠.

(٢) في دراستنا: الديانة المصرية: ص ١٢٥ وما يليها اعتبرنا إخناتون أبًا للتصوّف والرهبنة.

(٣) راجع نص نشيده في أتون: بريستد: فجر: ٣٠٢، ومقارنته بالمزمور الرابع بعد المائة،

Watterson, Ibid., p. 61 ff.

(٤) وتعني ألا موجود على الأصالة سوى الخالق، وإن ظهر لنا أن المخلوقات متعددة. راجع:

Hegel, Gesch. Der Phil., Reclam, Leipzig 1982, B. III, S. 217 ff.

(٥) كان بريسـتد متبحـرًا في دراسـات العهد القديم، ولما اتجه لدراسـات الشرق القديم ومـصر ردّ الفكر العبري في مجملـه لتعاليـم المصريين وحكمتهم. عمل مديرًا لمعهد شـيكاجو للآثـار الشرقية، وتوفي سـنة ١٩٣٥. راجع عنه كوتريل: الموسوعة الأثرية.

وأما اعتراف مؤرخنا – هكذا صراحة كما تقدّم في العبارة المقتبسة – باضطهاد بني إسرائيل إبان الأسرة التاسعة عشرة، فأمر يدعو للدهشة [١]. ويفسرّ ذلك تفسيرًا يبعث على الدهشة كذلك، إذ يقول إن الرعامسة شيدوا عمائر ضخمة، وقاموا بتسخير غير الأهلين فيها! لعله يقصد بني إسرائيل تحديدًا، بيد أنه يختصّ – على غير بيّنة – رمسيس الثاني تحديدًا [٢]. ولكن التوراة نفسها لم تخصّه، بل ذكرت رمسيس وحسب دون تحديد، والرعامسة كُثر كما نعلم.

إن الاعتراف بالسّخرة والاضطهاد عليه ردود موضوعية دون انحياز من المؤرخ لمصر القديمة. فالسخرة كعمل شاق بلا أجر لا دليل على ظهورها في ذلك الزمان [٣]، وأما النص الذي قدّمناه عن مجيء يوسف، وهو نص توراتي، فلا يدلّ على اضطهاد بل تكريم وإعزاز وتفضيل. وطبيعي أن يأتي ملك ما من بعد ذلك، فيحاول تقليل تلك الامتيازات التي كانت قد منحت لقوم يوسف. ذلك كل ما هنالك، وهو ثابت في كتابهم المقدس.

وبعد إبراهيم ويوسف – يذكر مؤرخنا كليم الله موسى – عليهم السلام جميعًا، وكيف تبنته امرأة فرعون [٤]... ويعاود الحديث عن تعذيب بني إسرائيل، وكيف رحلوا رحيلًا عسكريًا محشودًا. والثابت أن المتون المصرية لا تشير إلى شيء من هذا إلا إشارة عابرة في لوحة مري. إن بتاح بن رمسيس الثاني ، وأغلب الظن أن فرعون الخروج – المزعوم – لم يكن إلا حاكم إقليم مغمورًا، وربما لم يتجاوز نفوذه إقليم شرق الدلتا

---

(١) لاحظنا كذلك إدراج اسم "إسرائيل" – مجردًا من السياق التاريخي – أو إقحام حدث الخروج ليقع وفق حسابات كتابية – في أزهى عصور مصر (تحتمس الثالث أو أمنحتب الثاني...إلخ) مثلًا:

W. Budge, The Dwellers on The Nile, Dover, New York: 1977, p. XV, XVII.

(٢) وضحنا في دراستنا: «خروج بني إسرائيل» تفنيد كل زعم أن يكون فرعون الخروج أحد فراعنة مصر العظام، والأرجح أنه كان حاكمًا مغمورًا في فترة اضطراب وفوضى.

(٣) فنّدنا دعاوى السخرة في: فلسفة التاريخ: ١: ٨٩ وما يليها.

(٤) في العهد القديم أن ابنته «رأت السّفط بين الحلفاء»... (خر: ٢: ٥-٦) ، وفي القرآن: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ القصص: ٩. وعن نشأة موسى:

M. Grant, Das Heilige Land, uebrs. J. Rehork, B. Gladbach 1984, S. 65ff.

على أحسـن تقدير [١].

وأمـا الرحيـل العسـكري المحشـود - في ضوء ما تقـدم - فيصعب أن يـدلّ على عناية إلهية بالقـوم بقدر ما يـدلّ على قلة إيمانهم بالله، وضعف يقينهم فيـه، فضلًا على حرصهم على إخفاء مـا سرقوه من أمتعة المصريين بدعوى الإعارة [٢].وعمومًا فقد كانت الدولة الحديثة عصر الدولة المصرية العالمية ذات الإنجازات العسكرية المشهودة.

سادسًا: مصر والهللينية:

علاقة مصر بالهللينية تبدأ قبل غزو الإسـكندر مصر سـنة ٣٣٢ ق.م، وتأسيسه إمبراطورية ضخمة، فقد قدم « المغامرون الإغريق إلى مصر تجارًا وملاحين وجنودًا مرتزقة، وقد استخدمهم (بسـماتيك٦٦٣-٦٠٩ق.م) وحلفاؤه برًا وبحرًا في قتال الأشـوريين والفرس»[٣] أي قبل الاحتلال الفـارسي لمـصر سـنة ٥٢٥ ق.م. وآنذاك عاشـت جالية إغريقيـة في نوقراطيس (كـوم القعاف) قرب صالحجر، في القرن السـابع ق.م. وجعل لهم فيها أمازيس سـوقًا خاصة بهم، وهناك شـادوا معابدهم[٤]. « وقد زار مصر مشـاهير الإغريق كأفلاطون وسـولون وهيرودوت، ولكن يجدر بنا ألا نغالي فيما أثمره هذا اللقاء من أثر ثقافي متبادل»[٥].

ورغـم الصمـت المطبق عن الفـترة الممتدة بين سـنة ١٠٨٠ ق.م (نهاية الدولة المصرية الحديثـة) وغـزو الإسـكندر مـصر سـنة (٣٣٢ ق.م) ؛ فقـد حفظـت المعـارف المصريـة

(١) فايز علي: خروج (م. س) .

(٢) وفق رواية "سفر الخروج" ذاتها. المرجع السابق.

(٣) غربـال: تكويـن (٢٠١١) : ٦١ - ٦٢. قـارن أحمد فخري. مصرالفرعونيـة ، ط٥، الأنجلو المصرية، القاهرة١٩٨١: ص٤٢٠ وما يليها، أيضًا: . Bury, op. cit., p.108ff

بل إن ثمة شواهد على أن أم الملك خفرع من الأسرة الرابعة - كانت من أصل هلليني.

(٤) تقع نوقراطيس بالقرب من سايس - مقر الحكم آنذاك. راجع: سونيرون: معجم: ٣٤٢، هيرودوت: ٤٢ (هامش لأحمـد بـدوي) ، زايـد: مصر الخالدة: ٢: ٥١٧. وأما بطليمايوس فاسـم لعدة مدن ذات حكم ذاتي أيضًا أسـسـها بطليموس الأول، منها واحدة في إقليم طيبة، وثانية كانت ميناء على البحر الأحمر.أيضا: . Bury, op. cit

(٥) غربال: تكوين (السـابق): الموضع نفسـه. ولكننا نرى أن أثر مصر بحضارتها آنذاك على الإغريق والفينيقيين وشعوب البحار كان أكبر كثيرًا مما نعتقد. وهذا ما دفعنا إلى تأليف دراسة عن "الفلسفة المصرية".

الموروثة في الأوزيرياكا (محفل أوزير الأعظم) والمينيفيثون (مكتبة طيبة) وأخواتها، وأما معبد دلفي الذي احترق سنة ٥٤٨ ق.م فقد أعيد بناؤه بمنحة من أمازيس (٥٦٨ - ٥٢٥ ق.م)، وهو الذي صرّح لليونانيين بالوجود في مصر، والتتلمذ على أيدي الكهنة، وارتياد معاهد العلم [١]... وبالطبع كانت مصر في تلك القرون السبعة قد شاخت حضارتها، و"علا شأن شعوب فتية: هم الإغريق والفينيقيون والأتروريون والميديون واليهود والآراميون والرومان"[٢].

ولعل ذلك التغيّر الطارئ يفسر لنا - رغم كل الإيجاز - ظهور الإسكندرية المفاجئ حاضرة لمصر والعالم القديم، وذيوع صيت مكتبتها وعلمائها، ومتحفها أيضًا، بل وتنمحي ذكرى ما عداها! لا نعتقد أن ذلك كله تم مصادفة أو عن طريق أخطاء كزلات اللسان [٣].

إنه إذن الظهور العسكري للإسكندر، وانطواء الحضارة المصرية على ذاتها، وغلبة العنصر الهلليني غلبة سياسية مكّنته من السيطرة على مقاليد الحضارة المصرية و صبغها بصبغة هللينية. هنالك ينبغي إعادة النظر، والبحث فيما قدّمته مصر لتلك الحضارات الناشئة آنذاك، إذ لا مغالاة في ذلك أبدًا، بل الحذر كل الحذر من بخس الدور الذي قامت به مصر في ذلك

---

(١) هكذا نصحّح - في أغلب الظن - رؤيتنا لتلك الفترة، فتردّ الأمور إلى أصلها. وعقب وفاة أمازيس احتل الفرس مصر ٥٢٥ ق.م: فخري: مصر: ٤٢٨، هيرودوت:

A.T. Olmstead, History of The Perisan Empire, Uni. Chicago Prs., p. 86 ff.

وقد درج المفكرون على أن هيلاس هي مهد الفلسفة. راجع:

E.R. Sanduoss, Geschichte der Philosophie, dtv Vrlg., Muenchen 1989, B.I, S. 345 ff.

(٢) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٦١، وقارن: تويني: الهللينية: ١٩. ولعل مما يفسرّ اضمحلال حضارة مصر آنذاك هيمنة قلّة (غير مبدعة) وانفصالها عن الجماهير، الذين تسرّب إليهم اليأس والكسل.. ونحن نرج هنا إلى تنظير برتراند راسل في: السلطة والفرد، ترجمة : لطيفة عاشور، هيئة الكتاب ١٩٩٤: ص ٣٦ وما يليها. راجع عن الهللينية أيضًا: J.B. Bury, op.cit .

(٣) توالى على حكم مصر في تلك الفترة غزاة وعداة من أشور وفارس وميديا ومقدونيا.. ويجب النظر باعتبار إلى تكوّن فئات من المنتفعين، ولعل أسوأ ما فعلوا هو جهدهم في تشويه حضارة مصر والتقليل من شأنها. وللأسف أن تلك الفترة لم تنل بعدُ اهتمامًا كافيًا. راجع عن تلك الفترة: بريستد: تاريخ: ٣٤١ وما يليها، أيضًا: Hornung, Gesch., S. 115 ff.

السـياق. وذلك أن أرباب الفكر والفلسـفة (محبة الحكمة) قد زاروا مـصر وأقاموا بها، وتعلموا حكمـة المصريـين [١]. ولا نعتقد أنه مـن المصادفة أيضًا حرص معاهد العلـم على تلقين طلابها الفلسـفة اليونانية على أنها معرفة هللينيـة صرفة، وأن الشرق عامة – ومصر خاصة – لم تظهر بها أية فلسفة، مع ما تنطوي عليه تلك العبارة من تناقض [٢].

سابعًا- مصر والمسـيحية:

كما نشأت في مصر دعوة العهد القديم فقد وردتها دعوة العهد الجديد مهاجرة من الاضطهاد، والمسـيحية بترسـيخها مبدأ الخلود الأخروي والمحبة الإنسـانية والرحمة بالبائسـين والفقراء قد لاءمـت عقيـدة أوزير المصرية كما لـم تلائمها أية عقيـدة أخرى، وصدق قول هارناسـك: "إن المسيحية قد لاءمت في مصر بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم [الأوزيرية] الأساسية لمدى أوسع مما شهدناه في أي بلد آخر"[٣].

وصار لمصر كنيسة مستقلّة بعد مراحل من الاضطهاد الروماني سواء في الطور الوثني أو بعد اعـتراف القيـاصرة بالمسـيحية، وكان يوحنا مرقس أول كارز، وهو الشـهيد الذي اضطلع بعبء الكفاح من أجل نشر العقيدة في مصر وعبر البحر المتوسط [٤].

---

(١) مـدار الأمـر انحياز واضح للفكر الغربي. فحتى راسـل يكتب عن "تاريخ الفلسـفة الغربية". وقد ظل سـائدًا رد الفلسـفة إلى "هيلاس" في نشـأتها وتطورها. ونذهب إلى عكس ذلك تمامًا، فنبرهن على أن الفلسـفة نشأتها مصرية. راجع أيضًا: ج. جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨.

(٢) تدخـل مقولـة ذائعـة عن "الاسـتبداد الشرقي" مبررًا لعدم ظهور الفلسـفة في مصر، بزعم أنهـا تحتاج إلى مناخ ديمقراطي. وقد بينا سابقًا تهافت الدعويين بإيجاز. وتحليل الديانة المصرية على نحو مغاير لما هو معهود يكشف عن أبعادها التحررية.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٧٣. والراجح أن نظم الرهبنة قد أفادت من الأنظمة الهرمسية الغنوصية والأفلوطينية. فايز علي: الديانة المصرية: مواضع شتى. أيضًا: Mueller, op. cit., S. 82 ff.

(٤) أعدم القديس مرقس في ٣٠ برمودة سـنة ٦٨م، ويقال إن رأسـه وسّـد الثرى في كاتدرائيته بإسـكندرية، وسرق جسـده إلى البندقية في القرن ١٣م. وضع القداس الإلهي، وهو كارز مصر وكاروزها (المبشر)، وفي روما سـنة ٦٧م أسـهم في تأسيس كنيسـتها مع بولس... باقي بشارة: معالم تاريخ الكنيسـة القبطية، مك. مارجرجس، القاهرة، ص٢٠، وما يليها. عن نشأة المسيحية في مصر: Mueller, op. cit., S. 75 ff.

وطوّرت مصر لغة تلائم الديانة الجديدة، وإن كتبت بحروف يونانية [١]. وسرعان ما استوعبت تلك اللغة إبداعات الهللينية الفكرية لاسيما الرواقية، وأضفت على مدرسة الإسكندرية مسحة غنوصية، فجمعت إلى الفلسفة التصوف واللاهوت، وشهر من علمائها كليمنتس وأوريجين [٢]. وترجمت البشائر الأربع إلى القبطية، وحفظت تراتيل الكنيسة وترانيمها المقدّسة واللغة- كما ذهب الأدباء والمفكرون - حافظة لروح الأمة.

وبعد جولات من الصراع الفكري مع كنيسة روما حول طبيعة المسيح استقلت الكنيسة المصرية بعقيدتها، وذلك في مجمع خلقيدونية [٣]، وصارت لها تقاليدها وتقويمها.

وأما الرهبنة فكانت استجابة للاضطهاد الذي عاناه المسيحيون عامة ومسيحيو مصر خاصة على أيدي القياصرة من نيرون إلى دقلديانوس، الذي يبدأ التقويم القبطي - تقويم الشهداء - ببداية حكمه [٤]، وقامت الرهبنة على تعاليم السيد المسيح التي حضّ فيها على الزهد والتقشف هجرة إلى العالم العلوي. وعلى يد الأنبا باخوم (٢٩٠ - ٣٤٨م) تأسس أول دير في العالم [٥]، وإن سبقه آباء في الرهبنة غير الديرية مثل الأنبا أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦م) والأنبا

(١) عدا سبعة أحرف (ثاي، فاي، حوري...) أخذت عن الديموطيقية وظهرت كتابتها في القرن الثاني ق.م أي قبل المسيحية، وترجم إليها العهدان القديم والجديد. من لهجاتها المنفية والفيومية والأخميمية والبحيرية... شاكر باسيليوس: موسوعة اللغة القبطية، ك١، مط. أنباروبس، ص ٦ وما يليها.

(٢) عن كليمنس وأوريجينيس راجع: Sandvoss, op. cit., B.2, SS 64 – 65 .

والأنبا جريجوريوس أسقف البحث العلمي: الفلسفة المسيحية الشرقية، الكلية الإكليركية، القاهرة، ص ٤٠..

(٣) انعقدت مجامع مسكونية للجدل حول طبيعة المسيح، والأنبا شنودة (٣٣٣ - ٤٥٤) رئيس المتوحدين عاصر أربعة منها، وهي: القسطنطينية (٣٨١م)، إفسس (٤٣١م)، إفسس الثاني (٤٤٩م) وآخرها مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي شهد انشقاق الكنيسة القبطية عن كنيسة روما.. نقى شنودة اللغة القبطية، وأسس الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج، ومصر الأديرة والكنيسة. راجع: بشارة: الكنيسة (م.س) : ص ٨٣ وما يليها . Mueller, op. cit., S 106f

(٤) تبدأ الاضطهادات العشرة بعهد نيرون (٥٤ - ٦٨م) وتنتهي بعهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) ، وبعام ٢٨٤م يبدأ التقويم (القبطي ش = تقويم الشهداء = م (التاريخ الميلادي) - ٢٨٤ . Mueller, op. cit., ss. 78, 117 ff بشارة: السابق: ص ٣٠ وما يليها.

(٥) هو أبو الشركة، أسس أول دير في العالم في طابنسين قرب نجع حمادي سنة ٣٢٠م.. بشارة: السابق: ٨١ وما يليها Mueller, op. cit., 105 ff.

بولا (٢٣٥ – ٣٢٥م)[١].

ومـن مصر انتـشرت نظم الرهبنـة، وانتقلت عبر البحـار إلى العالم الأوروبي[٢]، وقد شـهد القرن الرابع ظهور المسـيحية وانتشـارها باعتراف القياصرة ودعمهم.

وأمـا الأنبـا شـنودة (٣٣٣ – ٤٥٢م) فـكان رأس الرهبانية المتوحدة، والمؤسـس الفعلي للأدب القبطي الخالص، إذ نقى اللغة من المفردات اليونانية، وكذلك المؤسس الحقيقي للكنيسة القبطية، تلك التي وهبت مصر استقلالية معنوية عن القياصرة حتى أن العرب الفاتحين كما تقول رويار: « لـم يـروا في مصر إحـدى ممتلكات بيزنطة، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون مسـتقلة»، إذ أن بطارقة إسكندرية تطلعوا إلى « أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة»[٣] عن الحكم الروماني بطبيعة الحال. وفي استقلال الكنيسة قوة لمصر.

إن الميراث القبطي المصري ظل يجري على ألسنتنا وفي معاملاتنا. فالحكايات والأمثال الشعبية تضم أخيلة وبيانًا وألفاظًا مصرية أصيلة.

وأما التقويم القبطي (توت – بابه – هاتور..) فيحمل أسـماء الأرباب المصرية، وهو الأنسـب لمواسـم الزراعـة والري والحصاد[٤]. ورغم أن المسـيحية والإسـلام شـكلا إلغـاء للفكر الديني السابق، فقد كانتا في الوقت ذاته امتدادًا حضاريًّا له بدرجة ما.

---

(١) تصـوّر الأيقونـة غرابًـا يأتي برغيف كامل. بـدلاً من نصف رغيف – للأنبا أنطونيـوس لدى لقائه بالأنبا بولا.. السابق: ٧٤.. فكتور عوض الله: اللوحات المصورة بالمتحف القبطي، المطبعة الأميرية ١٩٦٥، ص ٣٢ وما يليها.

(٢) سـيرة حيـاة أنطونيـوس عثر عليها في (تريف) على حدود فرنسـا وبلجيكا، واطلع عليها الأب أوغسـطين ٣٥٤ – ٤٣٠ فقادته إلى الهداية. ومع الراهبين بندكت ويوهانس كاسـيان انتشرت أنظمة الرهبنة من مصر إلى أوروبا، ومعهـا فنون الكتابة والمخطوطات. راجع: سـيرة الأنبا أنطونيـوس وتاريخ ديره العامرة – مجمع رهبان الدير عن أوغسطين الأول أوريليوس راجع: . dtv – Atlas Phil. , S. 69

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٧٦. وظلت مصر محتفظة بكنيستها، التي يرأسها "بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية".

(٤) فايـز عـلي: الأدب والنيـل عبر العصـور، الهيئة العامة لقصور الثقافـة، القاهرة ٢٠٠٩، أيضًا: جـ٣ من دراسـتنا: الأدب المـصري (م. س)، وفيهـا وضحنـا ارتبـاط أدب مصر القبطية بالأدب المصري من قبـل ومن بعد. وتحمل تلك الأشهر أسماء معبودات مصرية قديمة.

سابعًا- مصر والإسلام:

قدّم مؤرخنا بالحديث عن الغزو العربي وما تلاه منذ سنة ٦٤١م [١].

ووضح - عن حق- أن انتشار لغة الفاتحين العرب كان أسرع من انتشار الديانة الجديدة وأتمّ، إذ انفتحت مصر على عالم (إسلامي) شاسع، ذي ميراث حضاري حافل متنوع، وصارت مصر ملتقى لمستوطنين من بقاع الدنيا، منهم الأتراك والشراكسة والصقالبة... أولئك الذين أثروا تجارة السوق المصرية، وماجت بهم أروقة الأزهر ومعاهد العلم. وقد ظلّ الأزهر جامعة تهوى إليها أفئدة العلماء وطلاب العلم من أركان الدنيا جميعًا.

أما تجار أوروبا (المسيحية) فلم يكن لهم رسالة حضارية حتى نهاية القرن الثامن عشر (نحو ١٧٩٨م) ، أي نهاية الفترة الأولى - وفق تقدير مؤرخنا، وبداية الفترة الثانية التي تمتد إلى زماننا الحاضر أي عهد غربال، والقسمة على هذا النحو - في تقديرنا - تعتمد على العلاقة بالغرب، إذ يشير تاريخ ١٧٩٨م إلى حملة بونابرت. ولا نعتقد أنه مؤشر حقيقي لبداية العصر الحديث إلا إذا سلّمنا بأن التطور التاريخي في أوروبا هو المرجع والمنتهى. فلماذا يكون اللقاء مع الغرب أو مواجهته بداية تاريخ مصر الحديث؟[٢]

وأستطرد من ملاحظة مؤرخنا، إذ يقول:« وأما عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه » ، ونعتقد - مع مؤرخنا - أن الفكر القبطي نقل إلى الحضارة الإسلامية تراث مصر القديمة والتراث الهللينى أيضًا [٣].

---

(١) استُخدم لفظ غزو - غزوة لوصف حروب الرسول - ﷺ - وصحابته، واتخذ عثمان لقب غازٍ، وحذا حذوه خلفاؤه من سلاطين الدولة العثمانية.

(٢) أثبت شخصية مصر إلا الظهور في العصور الإسلامية أيضًا. ونعتقد أن تسمية تلك العصور حسب الأشخاص (طولونية وإخشيدية..) حجب تلك الخاصية. راجع عنها: Mueller, op. cit., S. 144 ff .

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١) : ٨١. ونرى أننا لم نبرأ عبر العصور من إلقاء تهمة الوثنية على المصريين ومن بعدهم اليونان والرومان.. مما صرف عن دراسة ميراث عظيم وبخسه وإصدار أحكام مسبقة ضده، دون الاحتكام إلى معايير تلك العصور.

وفي مجـال الأدب والفـن يتسـع أمامنا مجال الحديث، من ذلك ما أسـهم به ابـن بطريق (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) ويحـيى بن سـعيد الأنطاكي من بعده، وكلاهما كتب في التاريخ وسـير الآباء، وكذا أبناء العسّال في العصر الأيوبي، و منهم الصفيّ بن العسّال وكتابه في الفقه الأرثوذكسي، وكذا ابن كَبَر (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) وكان كاتب إنشاء في العصر المملوكي [١].

وإذا تحدثنا عن فتح الأندلس فإننا نؤكد ما يقوله جورج جيمس – عن صواب – إن المصريين الأقباط شاركوا الفاتحين العرب والبربر فيه، فانتقلت إلى أوروبا عبر الأندلس معارف المصريين (القدمـاء) إضافة إلى الـتراث الهلليني، وإن تعمّد البعض إغفال دور المصريين في ازدهار معاهد قرطبة وأشـبيلية وغرناطة ومكتباتها [٢].

كما نلاحظ أن تمسّك المصريين بلغتهم القبطية كان سببًا – في افتراضنا – لتأخر دور مصر في الإبداع الشـعري خاصة عن دمشـق وبغداد مثلًا، وإن تميّزت ثقافة مصر عادة بالاعتدال والوسـطية. وبهذا الافتراض نفسّر ظهور البارودي ومدرسـته متأخرًا في القرن التاسع عشر في طور نهضة الشـعر وتجديده. تأخّر زمني إذن وافقه إبداع كثيف [٣].

ونؤسس على رؤية غربال الحصيفة أن دور مصر لم يكن مجرد ولاية ممتازة في عهود الخلافة أو الدولة المملوكية أو العثمانية، بل نقول إنه لولا مصر ودورها ما كان لأمور تلك الدول أن تستقيم. فالفرق شاسـع بين قولنا مصر الأموية فالعباسية، ثم مصر الطولونية فالأخشيدية ثم الفاطمية... إلخ، وبين قولنا الدولة المصرية في طورها الأموي أو العباسي... إلى آخر تلك التسـميات [٤].

---

(١) محمـد سـيد كيـلاني: الأدب القبطي قديمًا و حديثًـا، دار الفرجاني، القاهرة: ص ٥ وما يليها، أيضًا دراسـتنا: الأدب المصري: ج٣: ص٣ وما يليها.

(٢) جورج جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨ وما يليها.

(٣) ولعل هذا الفرض يفسر لنا قول العقاد عن أن للبارودي "ميزة واضحة.. وهي أنه وثب بالعبارة الشـعرية وثبة واحدة.." بلا تدرّج ولا تمهيد: العقاد: شعراء مصر: ١٢١.

(٤) فالمسـألة إذن ليسـت إقليمية أبـدًا، بل هي تحاش لفصل متعمّد بين مراحل التاريـخ، يؤدي إلى فصل مكوّنات الروح المصري مما يعود بالضرر على كافة الأطراف. ونشـير إلى مؤلف محمد كامل حسـين: في الأدب المصري: ص ١١٦ ومـا يليهـا، الذي بحث في تميّز الأدب المصري بعد الفتح الإسـلامي،رغم قلّة محصـوله ميراثه، فما وجد منه من أبيات قليلة تكشـف عن صبغة إقليمية مصرية. أما دراسـتنا: الأدب المصري- فكما أوضحنا – تبحث في جوهر ممتد عبر العصور وهو الروح المصري.

وإذا لم يكن من اليسير لغربال أن يتحدّث آنذاك عن مساهمة الأقباط، فإلام أفضت محاولات محمد حسين هيكل ومحمد كامل حسين في الأدب، ومحاولات غيرهما؟ واليوم نتساءل: هل تغيّر الوضع كثيرًا؟ وفي أي اتجاه يا ترى؟.

تاسعًا- مصر والغرب:

ليس ثمة ما يدعو إلى تثبيت العلاقة بين الهويّات الثقافية والسياسية، فالغرب والشرق مفهومان ينطويان على التغيّر بأكثر مما ينطويان على الثبات. وبناء على ذلك يرى مؤرخنا أنه ليس علينا أن نظل أسرى كراهية التسلط الغربي في مرحلة أو مراحل معينة - مثل مرحلة الحملة الفرنسية مثلًا - ففي السياسة كل شيء يتغيّر باستمرار، و"الغرب" له دلالات ثقافية غير تلك السياسية مثلًا. وينتقد - عن حق - أولئك الذين يكتبون كما لو أن الشعب المصري يتعين عليه أن يختار موقفًا حاسمًا يلتزمه دون رجعة" ويفرضون علينا ما يجب علينا اتباعه [١].

ولعله ينتقد إذن التطرّف في محاكاة الغرب أو اللهث وراء اللحاق به كما يرفض التجمّد عند وضعية الماضي التليد أو التراث العظيم، وينتقد - أشدّ الانتقاد - مثلبة التردد، التي تقود إلى الفشل، كما حدث إبان ثورة الشعب في سنة ١٩١٩، التي عاصرها شابًا طموحًا [٢]، فكتب يقول: «كنّا نخشى أن تمتدّ إلى شعبنا الدعوات الأوروبية الجديدة القائمة في الروسيا وإيطاليا وألمانيا، فترددنا في تعبئة مواردنا الحية والمعنوية. وترتب على ذلك أن حذونا حذو كرومر، أي أننا حاولنا الحصول على شيء من كل شيء بقدر معلوم» [٣].

بلى، انتقد غربال ضعف إيمان القادة بالشعب، وأنانية "الصفوة"، واختلاق المعاذير لتبرير

---

(١) غربال: السابق: ٨٥. وعن تلك الفترة راجع: Vatikiotis, op. cit., p. 239 ff

(٢) غربال: المرجع نفسه : ٩٢. راجع أيضًا ما أورده محمد حسين هيكل (ت ١٩٥٦م) في: الشرق الجديد، ط ٢، دار المعارف بمصر ١٩٩٠. أيضًا: مؤتمر الجمعية التاريخية عن ثورة ١٩١٩، في ذكراها التسعين: القاهرة ٢٠٠٩.

(٣) غربال: المرجع نفسه، وتلك من العبارات الكابحة للطموح والمبادرة على عكس ما نادى به غربال.

التقصـير المؤدي إلى الفشـل، وأننا لـم نتعلم من أخطاء آبائنا إبان ثورة سـنة ١٨٨٢م، ولعله كان يعني أن على الصفوة أن تتسـم بالتضحية والنزاهة حتى تسـتحق أن تقود الجماهير، وهو ما يفهم من قوله: "إن الجماهير وحدها بلا قيادة لا تسـتطيع أن تصنع شـيئًا على الإطلاق... إنها في حاجة إلى رمز... هو الزعيم" (١).

وذلك القول فهم منه مؤرخنا حسام عبد الظاهر أن مؤرخنا ربما كان يؤمن بالبطولة الفردية أكثر من إيمانه بالبطولة الجماعية. ولا شـك أن البطولة سـمة جيدة في الحالين، ولكن ادّعاءها مـرض عضـال. ويختم غربال مقاله بعبـارة تؤكد أن البطولة – مهما يكـن تعريفها – ينبغي أن تصبّ في صالح الجماهير، فيقول: "لا يجب اعتبار الدولة شيئًا أفضل من كونها اتفاقًا على المشاركة في المنافع، بل هي مشاركة في العلوم كافة.. والفنون كافة.. والفضائل كافة، وفي الكمال كله" (٢).

قدّم غربال إذن قراءة نقدية للواقع المصري المعيش منذ أكثر من نصف قرن، ملقيًا نظره إلى جدليّـة التطور في تاريخ مصر، كاشـفًا عن قضايا بقيت خلافيـة إلى الآن. فإلى أي مدى تكون استجابة مؤرخي العصر ومفكريه؟ .

* * *

(١) حسـام عبد الظاهر: تراث غربال (م. س) : ٢٤٧، والاستشـهاد من حوار لغربال مع مجلة الإذاعة سـنة ١٩٥٨م. فهل كان ظهور عبد الناصر آنذاك تصديقًا لقول مؤرخنا ومعتقده، أم أن مؤرخنا كان بعيد التفاؤل؟ .

(٢) غربال: المرجع السـابق: ٩٣.والقول للمفكر جاك برك. يقارن ذلك بما ذهب إليه جون لوك (ت ١٧٠٤)عن حال المساواة بالفطرة بين الناس، أولئك الذين يقيمون سلطة التشريع باختيارهم لتكون هي مرجعية حريتهم:
dtv. Atl. Phil., S. 121; s.a. Sandvoss, Phil., 2, p. 186; Hegel, Geschichte, III, S. 203 ff.

التاريخ المصري وفق هلموت برونر: الأدب المصري بالألمانية. والتواريخ تقريبية

بداية التاريخ واختراع الكتابة	حوالي ٣٠٠٠ ق.م
العصر العتيق: الأسرتان الأولى والثانية * مقابر أبيدوس وسقارة – متون المقابر، دراما الخلق من الأسرة ٢٥	حوالي ٣٠٠٠ – ٢٧٠٠ ق.م
الدولة القديمة عصر بناة الأهرام الأسرات من ٣ – ٦ * تعاليم إيمحتب – جدف حور – بتاح حتب – كاجمني، قصص خوفو وسنفرومن الدولة الوسطى، متون الأهرام	حوالي ٢٧٠٠ – ٢٢٠٠ ق.م
العصر الانتقالي الأول: الأسرات من ٧ – ١٠ * شكاوى الفلاح الفصيح – حوار إنسان مع نفسه – بردية اليائس	٢٢٠٠ – ٢٠٤٠ ق.م
الدولة الوسطى الأسرات من ١١ – ١٣ * عصر الأدب الكلاسيكي: تعاليم مري كارع – خيتي – نصائح أمنمحات – نبوءة نفرتي – بردية وستكار قصص خوفو وسنفرو – قصة سنوحي – قصة الملاح الغريق – الأناشيد الدينية والدنيوية	٢٠٤٠ – ١٦٦٠ ق.م
العصر الانتقالي الثاني عصر الهكسوس: الأسرات من ١٤ – ١٧ * رسالة أبو فيس على سقنن رع – لوحتا كامس بالكرنك	١٦٦٠ – ١٥٢٧ ق.م
الدولة الحديثة: الأسرات من ١٨ – ٢٠ * قصص: الأخوين إعماء الحق – الأمير المسحور – ونآمون – أسطورة إيزيس وأوزير – حوليات تحتمس الثالث – قصة القائد تحوتي – نشيد آتون – مدائح رمسيس الثاني – الأغاني الغزلية (تشستر بيتي) – تعاليم آني – أمنمئوبي – كتب الآخرة	١٥٢٧ – ١٠٧٠ ق.م
العصر الانتقالي الثالث: الأسرات من ٢١ – ٣٤	١٠٧٠ – ٧١٥ ق.م
العصر المتأخر: الأسرات من ٢٥ – ٣٠ * تعاليم عنخ ششنقي – أسطورة عين الشمس – أساطير سيتون خعمواست – بيتوباستيس – متون العالم الآخر.	٧١٥ – ٣٣٢ ق.م
العصر اليوناني: (الإسكندر والبطالمة)	٣٣٢ – ٣٠ ق.م
العصر الروماني (القياصرة)	٣٠ ق.م – ٣٩٥م

⊙⊙⊙